الباب الأول

الفصل الأول

الذهبى عصره وحياته وآثاره

عصر الإمام الذهبي

عند دراسة عَلم من الأعلام ، لابد من إطلالة ـ ولو خاطفة ـ على ذلك العصر الذي نشأ فيه ، والمؤثرات التي تأثر بها ، والأحداث المحيطة به ، فلذلك تأثير كبير على دوافعه واتجاهاته ، وميوله واهتماماته .

فمن عاش في بيئة يغلب عليها الفقه يختلف عمن عاش في بيئة لا تهتم إلا بالنقل ، ومن عاش عصر الحرية ليس كمن ذاق مرارة القهر والاستبداد ، ومن رافق أهل الجمود سيختلف نتاجه العلمي عمن تتلمذ على من ودع القيود .

والإنسان ابن بيئته ، لا يستطيع أن ينفك عنها ، ولها تأثير عليه بحلوها ومرها ، بأوضاعها المختلفة ، وبطبائعها المتعددة ، ولا يستطيع المرء إلا أن يكون مؤيدًا للأحداث من حوله أو مخالفًا ، وفي كلتا الحالتين تتفاوت درجات استجابته كمًّا وكيفًا .

ولكن من العلماء من يسير على نهج عصره مرتضيًا بذلك الواقع ، غير قادر على مقاومة تيار يخالفه ، ولا يجسر على الخروج بنهج جديد وفكر رائد .

ومنهم من يكتفي بوصف ذلك الوضع وتوجيه النقد لتلك المناهج التي لا يرتضيها ، ولكن همته تبطئ به أن يقدم طرحًا جديدًا أو بديلا لذلك الفكر البائد .

وقليل من يكون لديهم تلك القدرة والجسارة على الخوض في هذا الميدان وسلوك ذلك الدرب الشائك بنَفَس قوى ، وفكر سديد ، ومن أولئك النفر القليل الإمام الذهبي رحمه الله تعالى .

● **الحالة السياسية :**

للحالة السياسية تأثيرها على كثير من العلماء ، وقد كان عصر الإمام الذهبي رحمه الله مليئًا بالاضطرابات ، سواءً على المستوى الداخلي أو الخارجي .

فعلى المستوى الخارجي منيت بلاد الإسلام بخطرين محدقين :

١ - الحروب الصليبية :

بدوافع شتى تعرضت بلاد المسلمين لحروب قاسية أخذت منهم الكثير وحصدت الأرواح ، وسلبت المقدسات ، فقد رفع النصارى الصليب وادعوا أنهم مقبلون على حرب مقدسة ؛ لتحرير المقدسات المسيحية من أيدي المسلمين ، وللذود عن الحجاج المسيحيين الذين يعاملون معاملة قاسية ، وذلك حتى يرضى المسيح!!

وكان وراء ذلك أسباب خفية وأصابع تعمل في الظلام تدفعها أوهام السيطرة على ثروات المشرق ، وتوسيع الإمارات والممالك من جهة ، وتصفية حسابات للتخلص من بعض الأمراء بدفعهم إلى معارك طاحنة من جهة أخرى ، أضف إلى ذلك هذا الحقد الدفين الذي يحمله القساوسة للإسلام الذي طالما هدد عروشهم .

ساعد على ذلك ضعف العالم الإسلامي وتفككه ، وصراع السلاطين والأمراء على السلطة ، مع كثرة الفرق الفكرية المنحرفة التي والت الصليبيين على حساب إخوانهم المسلمين .

ونتيجة لانشغال حكام المسلمين بصراعاتهم الداخلية ظلت الجبهة الخارجية واهنة عاجزة ، لا طاقة لها بصد مثل هذه الهجمات البربرية الوحشية التي لا تعرف إنسانية أو عهودًا .

وكما قال المستشرق جب : « إن الحرب الصليبية الأولى مدينة إلى حد كبير في نجاحها إلى ضعف المقاومة التي لاقتها »[(١)].

والحق أن الحروب الصليبية اختارت توقيتًا مناسبًا ، ففي ذلك الوقت كان الضعف قد استحكم في جسد الدولة الإسلامية الممزقة الأوصال ، فلو تأخروا

---

(١) دكتور عبد العظيم عبد السلام، ابن القيم الجوزية عصره ومنهجه ص٣٢ رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، كلية دار العلوم رقم (٧٦٥) سنة ١٩٥٥م .

قليلا أو تقدموا قليلا لما كتب لهذه الحملات ما حققته من إنجازات بهذه السرعة الخاطفة .

يقول المؤرخ «لين بول» : «لو تقدم الزمن قليلا بالحملة الصليبية الأولى لصدتهم قوة السلاجقة ، ولو تأخر بهم قليلا لكان من المحتمل أن يلقي بهم زنكي أو نور الدين في البحر الذي جاءوا منه ، ولكنها كانت فترة من الفترات السعيدة للأوروبيين»[(١)] .

وجه الصليبيون للعالم الإسلامي سبع حملات عسكرية خلال قرنين من الزمان نحو بلاد الشام ومصر ، وما زال الأمر بين مد وجزر ، وكر وفر ، وحصار وحرب .

وكان رد فعل المسلمين متفاوتا بحسب تماسك البناء الداخلي للدولة وقوة البناء الخارجي ، فكلما انتشر الخلاف وظهر الصراع كانت الغلبة للصليبيين ، وكلما التأم الصدع ، وتوحدت الكلمة كان الظفر للمسلمين .

ولقد لطف الله بهذه الأمة إذ هيأ لها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود ثم صلاح الدين ومن تبعه من صالحي الدولة الأيوبية ثم المماليك لدحر هذا العدوان ، والخلاص من تلك الأفاعي .

يقول ابن الأثير : «ومن الفتن خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ من الغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر ، وملكهم ثغر دمياط منها ، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها ، لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم»[(٢)] .

وكانت آخر الحملات تلك التي قادها لويس التاسع ـ ملك فرنسا ـ والتي انتهت بهزيمة قاسية ودرس مؤلم ختمت به الحملات الصليبية كما كان انتصار الأشرف خليل بن المنصور قلاوون عليهم وطردهم من عكا نهاية الوجود الصليبي في مصر والشام (٦٩٠ هـ).

وقد كان لهذه الحروب عظيم الأثر في نفوس المسلمين ، فقد أيقظتهم من غفوة ، وحركتهم من ثبات ، وأشعلت فيهم روح الجهاد ، ودفعتهم إلى العودة إلى طريق الصلاح والاستقامة ، كما كانت درسا قاسيا لحكام الإمارات الذين طغت عليهم الأنانية وحب الذات .

---

(١) نقلا عن دكتور عبد العظيم عبد السلام ، ابن القيم الجوزية عصره ومنهجه ص٣٢.

(٢) ابن الأثير ، الكامل (١٣٨/٢).

وكان لتلك الحروب أثر كبير في إكساب كثير من العلماء لصفة الجرأة في الحق ، وعدم الخوف في الله لومة لائم ، فوجد الكثير من العلماء يقفون من السلطة مواقف صارمة كالإمام النووي والعز بن عبد السلام وغيرهم .

٢- حروب التتار :

لم تنته الحروب الصليبية بعد حتى انقض التتار على شرق العالم الإسلامي ، وأخذت معاوله تفتت ذلك الجسد الذي طالما كان متماسكا ، فأبادوا ملك خوارزم شاه وعاثوا فسادًا في الممالك الإسلامية ببلاد ما وراء النهر ، وظلت جحافلهم تتقدم وحصون المسلمين تتهاوى ، حتى وقفوا على مشارف بغداد .

وكان التتار تحت راية جنكيز خان ، الذي وصف بأنه أعظم مخرب قام في الأرض ، لا يدعون شيئا إلا أفسدوه ، ولا يقدرون على شيء إلا أتلفوه ، غلاظ القلوب لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا ، قساة الطباع ، يميلون إلى العدوان ، ويتعطشون إلى سفك الدماء ، يأكلون الكلاب والخنازير ، ويأتون النساء بلا زواج ، فالمرأة يأتيها غير رجل .

وكان الخليفة العباسي المعتصم ـ مع تدينه وعفة لسانه ـ ضعيف الرأي قليل الخبرة مطموعا فيه ، ليس له هيبة في النفوس .

وكما استغل الصليبيون ضعف بلاد الشام ومصر ، انتهز التتار تهاوي الخلافة العباسية ، وبمعاونة ابن العلقمي ـ الوزير الخائن ـ تمكن التتار من معرفة نقاط الضعف في دولة الخلافة ، فقرروا الزحف إلى بغداد ، وسقطت دولة الخلافة ، واستسلم الخليفة معه العلماء والقضاة والأعيان لأمان مزعوم للقائد التتري هولاكو ، فغدر بهم وقتلهم شر قتلة ، وقتل خلقا كثيرا من أهل السنة[1] .

وأعمل أعداء الله السيف في المسلمين فقتلوا منهم ما لا يحصى ، ودب الرعب في قلوب من بقي منهم ، وتسرب الأمل في أن يهب ناصر أو يدفع مغيث . ونهبت المكتبات في ثورة تترية ضد صنوف الحضارة وألوان العلوم ، فأتلفت الدور العامرة بالنفائس في شتى العلوم .

---

(١) الذهبي ، العبر في خبر من غبر (٥/٢٢٥ ، ٢٢٦) مطبعة حكومة الكويت ١٣٨٦هـ ، تحقيق دكتور صلاح الدين المنجد .

وما زال الغرور بهولاكو قائد التتار ، ورغبته الدموية تزين له الإجهاز على بقية الجسد الواهن ، فاتجه نظره صوب الشام ومصر وأرسل رسائل التهديد والوعيد .

وأراد الله تعالى أن تقف هذه الأطماع ، وأن تندحر هذه القوى الغاشمة فهزمهم السلطان المظفر قطز في عين جالوت شر هزيمة ، وكان انتصار المماليك علي التتار دليلا مكن من سلطانهم ، وأثبت للعالم أجمع أن هناك دولة تستطيع أن تقوم على حماية الإسلام بعد سقوط الخلافة في بغداد .

وما زالت الحروب بين المماليك والتتار حتى التقت جيوش غازان التتري ، بجيوش المماليك على رأسهم السلطان الناصر قلاوون فهُزِم التتار شر هزيمة ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

يقول ابن تغري بردي : «ومشى السلطان على التتار ، والخليفة بجانبه ، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ، ويشوِّقون إلى الجنة ، وسار الخليفة يقول : يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن دين نبيكم ﷺ وعن حريمكم ، والناس في بكاء شديد»[1].

● **أثر الحروب الصليبية والتترية :**

بالرغم من تلك المعاناة التي تعرض لها العالم الإسلامي والتي حصدت الأرواح واستنزفت الأموال ، وأحرقت الكتب ودمرت الديار فقد استفاد المسلمون أكثر ، فقد أوجدت هذه الحروب روح التحدي والحماس لدينهم ومقدساتهم ، ودعتهم إلى الاهتمام بدراسة عقائد وانحرافات الخونة المنتسبين إلى الإسلام كالنصيرية والإسماعيلية .

وكان لها أثر في شيوع روح الحرية الفكرية وظهور الآراء الفقهية التي تزامنت مع هذه الحروب : ومنها جواز قتال التتار بعد إعلانهم الإسلام حال بغيهم . ومنها جواز الفطر في رمضان للتقوي على القتال . ومنها مراعاة المصلحة فيما يفرض على الناس من أموال في سبيل تقوية الجيش للدفاع عن حريم المسلمين وحرماتهم .

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة (٨/١٦٠).

ومن ذلك استعادة هيبة العلماء ووقوفهم في وجه الحكام ، وعدم قدرة الحكام على البطش بهم ، لما حقق العلماء من التفاف شعبي ، ضمن له الحماية من تنكيل الحكام ويظهر ذلك في معارضات العز بن عبد السلام[١] والإمام النووي[٢].

على أن ذلك لم يكن على الإطلاق ، فكان السلطان تحت تأثير بعض جهلة الفقهاء ومقلديهم قد يمنع بعض العلماء من الإعلان بفتاويه يقول الذهبي : « وجاء كتاب سلطاني يمنع ابن تيمية من فتياه بالكفارة في الحلف بالطلاق ، وجمع له القضاة ، وعوتب في ذلك »[٣].

كما كان الخلاف في فهم النصوص العقدية من الآيات والأحاديث سببا في إلحاق الأذى ببعض العلماء ، فقد كان إظهار العقيدة الواسطية لابن تيمية سببا في أن « سجن الشيخ ونودي عليه في دمشق : من كان على عقيدة ابن تيمية حل دمه »[٤].

● الحالة الاجتماعية :

الإنسان وليد زمانه ومجتمعه ، يتأثر بهما ، وربما أثر فيهما ، ودراسة ظاهرة ما أو تتبع أحد الأعلام ينبغي ألا يكون بمعزل عن مجتمعه ، ولو في صورة إطلالة عامة ، توضح آثار المجتمع ، وتبرز نتاج ذلك العلم .

وبنظرة إلى المجتمع الذي عاشه الإمام الذهبي نرصد عدة ظواهر ، منها :

أ- تعدد الأجناس والفرق :

فقد تباينت العادات والأعراف والطباع والتقاليد لتباين الأجناس والفرق التي كانت تعيش في ذلك المجتمع ، فإلى جانب العرب كان الأسرى من الصليبيين والتتار الذين عاشوا في الدولة الإسلامية ، وإن كان منهم من اعتنق الإسلام دينا ؛

---

(١) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (٨٤/٥ ، ٨٥) ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، دار هجر ط . ٢ ، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م .

(٢) حسن المحاضرة (٦٦/٢ ، ٧١).

(٣) الذهبي ، ذيل العبر ص١٠٣ تحقيق محمد رشاد عبد المطلب ، مطبعة حكومة الكويت ، دون ذكر الطبعة ، أو تاريخ النشر .

(٤) المصدر السابق ص٣٠ ، ٣١ .

إلا أنهم على كثير من عاداتهم وأعرافهم فهم « جمعوا بين الحق والباطل وضموا الجيد إلي الرديء ، وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية . . . واحتاجوا في ذات أنفسهم إلي الرجوع إلى عادة جنكيزخان والاقتداء بحكم السياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم »[١].

وكانت الأقليات غير المسلمة شوكة في ظهر الجسد المسلم ، وعونا لأعدائها ، ومرشدا للغزاة إلى مواطن الضعف وعورات الحصون .

فالنصارى بالرغم من شعورهم بالسلامة والاطمئنان بين المجتمع المسلم ؛ لما يوجه الإسلام أتباعه إلى الإحسان إليهم : كلما وجدوا المسلمين في مأزق حرج استغلوا هذه الفرصة للنيل من المسلمين .

يقول المقريزى : « واستطال النصارى بدمشق على المسلمين وأحضروا فرمانًا من هولاكو بالاعتناء بشأنهم وإقامة دينهم ، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان ، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات ، وصبوه على أبواب المساجد ، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم ، وأهانوا من امتنع عن القيام للصليب »[٢].

إضافة إلى ذلك كانت الفرق الباطنية كالإسماعيلية والنصيرية يعيشون بأسماء المسلمين ، وقلوبهم أكثر عداء للإسلام والمسلمين من اليهود والنصارى ، فقد استغلوا انشغال سلاطين المسلمين في حروبهم ضد التتار والصليبيين وأغاروا على مناطق المسلمين العزل وأعملوا فيهم القتل والسلب ، والسبي والنهب ، وعقدوا الأسواق لبيع ما غنموا من أبناء ومتاع المسلمين لأعدائهم من الصليبيين[٣].

ولاختلاط هذه الأجناس وتعدد هذه الفرق ، مع عدم الاستقرار الداخلي وعدم وجود نظام تعليمي دقيق ، فكان لزامًا أن يتأثر العرب بهؤلاء التتر ، وأولئك الفرنجة وغيرهم من الفرق والأقليات الأخرى فاختلطت الكثير من العادات

---

(١) المقريزي ، خطط مصر ص٢٢١ .

(٢) المصدر السابق حوادث سنة ٦٥٨هـ .

(٣) دكتور أحمد العليمي ، ابن تيمية محدثًا ص٣٧ ، دار ابن حزم ط . ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م .

والتقاليد والأخلاق والحضارات ، «حتى كأن المشرق والمغرب يختلطان فيما بينهما»[١].

ب ـ انتشار مظاهر الفساد والانحلال :

ومع ذلك التصدع في الصراع الإسلامي من الداخل والخارج ، وضعف قبضة السلطان ، وغياب هيبته ، وانعدام قبضة من حديد تضرب على يد المحالف للقانون ، ولضعف الإيمان عند ضعاف القلوب الذين لا يرتدعون إلا وسيف السلطان مسلط على رءوسهم ، فقد انتشرت آلات اللهو والمعازف وذاع الغناء ، وراجت المخدرات ، وانتشر بين الناس الحيل والألاعيب في المعاملات والأعمال وانتشر البغاء ، وكان له قانون تعمل البغي من خلاله .

وأمام مظاهر الانحراف تلك ، قام الدعاة والمصلحون في محاربة تلك الأمراض الخبيثة التي استشرت في جسد ذلك المجتمع ، فأنكروا ذلك على قدر طاقاتهم .

فالعز بن عبد السلام ينكر على وزير نجم الدين أيوب بناءه دارًا للهو والغناء ؛ بل وأسقط عدالة الوزير ، وقام مع أولاده بهدم تلك الدار[٢] ، ويؤلف رسالة بعنوان «مجلس في ذم الحشيشة» .

ويؤلف ابن تيمية رسالة في «تحريم احتكار الأقوات» .

ويؤلف ابن القيم «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»[٣].

ويحارب الذهبي رحمه الله تعالى ذلك بتأليفه لكتاب الكبائر ، زاجرًا أصحاب الذنوب ، ومرشدا إياهم إلى خطر ما يقترفونه ، داعيا إياهم إلى الهدى ولزوم الصراط المستقيم .

كما يؤلف «زغل العلم» مخاطبا علماء السوء ، كاشفا سوءاتهم وعوارهم أمام أنفسهم ؛ لعلهم يعودون إلى علمهم ، ويتركون مهادنة السلاطين اتكالا على أنهم من العلماء الذين لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة !!

---

(١) أبو الحسن الندوي ، الحافظ ابن تيمية ص٢٧، تعريب سعيد الأعظمي الندوي ، دار القلم ، ط . ١ ، ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م .

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة (٢/ ١٦٢).

(٣) دكتور علي الدخيل ، مقدمة الصواعق المرسلة (٤١/١)، دار العاصمة ط . ٢، ١٤٢١هـ .

جـ ـ طبقات المجتمع :

انقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات :

١- الطبقة الحاكمة :

وعلى رأسهم السلطان ، وهم في عيش المترفين ، يعيشون في رغد من العيش ، ولا يشعرون بسواد الشعب وعامتهم ، يتقلبون في النعيم ، ويرفلون في الملذات والشهوات ، متخذين من انتصارهم على التتار والصليبيين مبرراً للاستحواذ على مصادر المال وموارد البلاد ، يتحدثون التركية التي ينتمون إليها ، لا يعرفون من العربية إلا ما يجزئ في إقامة الصلاة ، ومع ذلك يقربون العلماء ، ويصلونهم .

٢- طبقة العلماء :

وهي الطبقة الثانية في المجتمع ، تستمد نفوذها من الدين نفسه ، ومن حب الناس الفطري للدين الذي يمثله هؤلاء العلماء ، وهم يستطيعون أن يملكوا قلوب الناس ويوجهوهم إلى الخير والصلاح بحسب قوة إيمانهم وتجردهم في دعوتهم ، ولهم سلطان أقوى من السلطان .

غير أن علاقة العلماء بالسلطان كانت تتغير بحسب موقع العالم وهمته وقوة إيمانه والتفاف العامة حوله ، فمنهم من رضي بدراهم معدودة واشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، فداهن السلاطين وأفتى بما يريدون ، غير أن هذا الصنف لم يكن له حظوة عند العامة ، ولا تأثير على الشعوب ، فزهد فيهم السلاطين .

ومنهم من كان لا يخاف في الله لومة لائم ، ويصدع بالحق كائنا ما كان ؛ كسلطان العلماء العز بن عبد السلام عندما هاجم الصالح إسماعيل وقطع الدعاء له في الخطبة استنكارا لتعاونه مع أعداء المسلمين ووقعت بينهم الوحشة ، وتوسط البعض طالبين من العز أن يقبِّل يد السلطان فقال لهم : «ما أرضاه يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده»[(١)].

ولما أنكر بيع الخمور في مصر على الأشرف موسى بن الملك العادل تعلل بأن ذلك من زمان أبيه العادل فقال العز : «أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة» ، فرسم السلطان بإبطال ذلك[(٢)].

---

(١) حسن المحاضرة (٢/ ٩٧ ، ٩٨).

(٢) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ٨١).

كما كانت الصراعات بين العلماء سببا في إيذاء بعضهم البعض ، كما حدث لشيخ الإسلام الذي سجن غير مرة[١] ، كما منع رحمه الله من الجهر ببعض فتاواه[٢].

٣- طبقة العامة :

وهي فئات متعددة ، أعلاها التجار والصناع ، ثم العمال والفلاحون ، وعليهم تقع الأعباء والمظالم ، ويكلفون بالضرائب وغير ذلك .

وكان احتكاك طبقة العامة بالعلماء أكثر من الأمراء ، بل كثيرا ما كان العلماء لسان حال عامة الشعب لدى الأمراء والسلاطين .

ولا شك أن أحوال السلاطين والأمراء بالنسبة لمواجهة الأعداء أو مهادنتهم ، وكذلك وجود الاحتلال وما يتبعه من أحكام الجهاد بالنفس والمال بالإضافة إلى وجود الأجناس المتعددة بأعرافها وقيمها ، مع شيوع الفساد وتردي الأخلاق ؛ كل ذلك دفع العلماء الغيورين إلى اتخاذ موقف من أعداء الأمة ، وجعل مسائل الجهاد وفتاواه تظهر على الساحة ، وكذلك الدعوة إلى الإنكار للمنكر سواء باليد أو بالمؤلفات الزاجرة عن اقترافه والاقتراب منه وكان الإمام الذهبي من هؤلاء العلماء الذين حاربوا المنكر من خلال الوعظ والإرشاد ، وقاوم البدع بنشر عوارها وفضح أصحابها وبيان بهتانهم ، كما حارب التصوف في صورته الباطلة التي تبعد عن معناه الحقيقي ، وأظهر للعلماء من أخطار الركون إلى مناصبهم العلمية خشية الأشر والبطر ، وقسوة القلوب والحيل .

● **الحياة العلمية :**

على الرغم من الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي سادت هذه الفترة ، فقد كان للعلوم عامة والإسلامية منها خاصة حظ كبير من العناية ، وكان للعلماء حظ وافر من الرعاية .

---

(١) الذهبي ، المعجم المختص بالمحدثين ص٢٥، ٢٦ ، تحقيق دكتور محمد الحبيب الهيلة ، مكتبة الصديق ، بدون ذكر سنة الطبع أو رقم الطبعة .

(٢) الذهبي ، من ذيول العبر ص٣٠ ، ٣١ ، ١٠٣ .

فالمماليك ينشئون دولة هم رعاتها ، وهم يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم ليسوا عربًا ، وأن هذا الوجود لهم في سدة الحكم يحتاج إلى دعائم تقويه وركائز تثبته ، فكان الاهتمام بالعلم وتقريب العلماء من عوامل بسط نفوذهم وتدعيم سلطانهم .

وكان للنكبات التي تعرض لها العالم الإسلامي في الأندلس وبلاد الشام على أيدي الصليبيين ، وفي العراق على أيدي التتار ، وما كان له من تأثير على المكتبة الإسلامية إحراقا وإغراقا ، وإتلافا وإعدامًا ، فهب العلماء وجدوا ، وشحذوا هممهم لتعويض ما فات واستدراك ما مات .

فكم من دور علم خربت ، وكم من علماء أعدمت ، وأعدم معها علوم جمَّة ، ومعارف متنوعة ، فكان واجب العصر هو إعادة ذلك التراث المتجدد ، وإحياء هذه العلوم الخالدة ؛ لأنها ترمز لخلود ذلك الدين الذي تكفل الله تعالى بحفظه .

والمتأمل للحياة العلمية في ذلك العصر ينبغي أن يقف عند هذه الظواهر :

١- دور العلم : ومنها :

أ- المساجد :

وكانت أهم المساجد التي يتلقى فيها العلوم الجامع الأزهر وجامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص وجامع الحاكم وهي تمثل منارات ، بل جامعات غير نظامية للتدريس والتعليم والتعلم[(١)] .

ب ــ المدارس :

وإذا كانت المساجد تقوم بدور التعليم غير النظامي ، بحيث لا يُخضع لمنهج معين ، ولا يفرض على طلاب العلم الالتزام بحلقة علمية دون غيرها ، فعلى خلاف ذلك كانت المدارس تعرف الكثير من أنماط التعليم النظامي ، فيقوم ببنائها غالبا بعض الأمراء أو الأعيان أو العلماء ، ويشرط لها شروطا تتعلق بالمحتوى الذي يدرس حينًا ، وبشخصية وعلوم ، ومعارف واتجاهات من يتولى مهام التدريس بها .

---

(١) محمد شوقي خضر ، الذهبي المحدث ص٢٩ ، ٣٠، دكتوراه ، جامعة الأزهر كلية أصول الدين ، رقم (٤١٤ - ٤١٦) ، عبد العظيم عبد السلام ، ابن القيم الجوزية عصره ومنهجه ص٤٢-٤٧ .

ومن هذه المدارس :

دار الحديث الأشرفية	دار الحديث الأشرفية البرانية
دار الحديث البهائية	دار الحديث الحمصية
دار الحديث السكرية	دار الحديث النورية
دار الحديث الناصرية	دار الحديث الكاملية
دار الحديث الظاهرية	دار الحديث المنصورية
دار الحديث العادلية	

ومما تولى الإمام الذهبي مشيخته :

دار الحديث الفاضلية	دار الحديث النفيسية
دار الحديث التنكزية	دار الحديث العروبة
دار الحديث السكرية	دار حديث أم الصالح[1]

وهكذا كانت بلاد الشام ومصر عامرة بالمدارس النظامية ، وكانت علوم الشريعة عامة والحديث خاصة أهم ما يميز هذه المدارس .

وكان الحافظ الذهبي رحمه الله ممن اختير لتولي مناصب التدريس بكثير من تلك المدارس العلمية .

٢- العلماء :

وافقت رغبة الحكام المماليك توطيد سلطانهم باسم الدين وإنشاء المدارس رغبة عند طلاب العلم للنهوض بحال الأمة ، وإحياء ما اندثر من تراثها على يد أعداء الحضارة الإنسانية ، فنبغ الكثير من طلاب العلم وارتقوا إلى مصاف العلماء ، محررين مسائل الفقه ، وناقدين أسانيد الحديث وفنونه ، وذابين عنه الكذب والوهم ، وعاكفين على بيان مراد الشريعة الإسلامية .

وقد ازدانت هذه الفترة بكثير من الحفاظ والفقهاء الذين كان لهم دور رائد في الخروج من الكبوة وإقالة العثرة ، والحفاظ على تراث الأمة ، فمن هؤلاء :

---

(١) النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس (١/١٩-١٢٠) الحسيني ، ذيل العبر (٤/١٥٢-١٥٤) ، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب ، مطبعة حكومة قطر ، بدون طبعة أو تاريخ .

أبو الفضل أحمد بن هبة الله ابن عساكر (٦٩٩هـ)

عبد المؤمن بن خلف الدمياطي الشافعي (٧٠٥هـ)

أبو الحسين علي بن محمد اليونيني (٧٠١هـ)

محمد بن علي بن وهب ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ)

أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي (٧٤٢هـ)

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (٧٢٨هـ)

القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي (٧٣٩هـ)

تقي الدين السبكي المصري (٧٥٦هـ)

محمد بن محمد بن أحمد ابن سيد الناس (٧٣٤هـ)

محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٧٥١هـ)[1]

أبو الفداء الحافظ ابن كثير (٧٧٤هـ)

شيخنا شمس الدين بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ)

ويتحدث الحافظ الذهبي عن أهم علماء الحديث من شيوخه وأقرانه وتلاميذه فيقول : «فما أدركنا من أصحاب الحديث إلا طائفة كقاضي ديار مصر وعالمها تقي الدين ابن دقيق العيد ، والحافظ الحجة شرف الدين الدمياطي ، والحافظ جمال الدين ابن الظاهري ، والشيخ شهاب الدين ابن فرح ونحوهم . . . ونحمد الله في الوقت أناس يفهمون هذا الشأن ويعتنون بالأثر كالمزي وابن تيمية والبرزالي وابن سيد الناس ، وقطب الدين الحلبي ، وتقي الدين السبكي ، والقاضي شمس الدين الحنبلي ، وابن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة ، وصلاح الدين العلائي ، وفخر الدين بن الفخر ، وأمين الدين بن الواني ، وابن إمام الصالح ، ومحب الدين المقدسي ، وسيدي عبد الله خليل»[2].

---

(١) عبد الستار الشيخ ، الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام ص٧١-٩٢ ، دار القلم ، دمشق ط . ١ ، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م .

(٢) الذهبي ، زغل العلم ص١٣ ، ١٤ .

٣- المصنفات :

كانت لهذه الحركة العلمية الهائلة التي تضافرت فيها جهود الأمراء والأعيان ـ بإنشاء المدارس وتخصيص الأوقاف من جهة مع اضطلاع العلماء وطلاب العلم بمسئولياتهم أمام الله تعالى ثم أمتهم الإسلامية من جهة أخرى : كان لها أن تؤتي أكلها ويطيب جناها ، وينتشر عبيرها ، وذلك من خلال تلك المنظومة العلمية الرائدة ففي هذه الأثناء ظهرت مؤلفات ضخمة تنبئ عن مناهج محكمة لعلماء أفذاذ ، ومن ذلك :

- في الحديث :

الإلمام في أحاديث الأحكام لابن دقيق العيد

جامع المسانيد والسنن لابن كثير الدمشقي

- الشروح :

التلويح شرح الجامع لعلاء الدين مغلطاي

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي

النفح الشذي شرح سنن الترمذي لابن سيد الناس

شرح سنن أبي داود لعلاء الدين مغلطاي

شرح سنن ابن ماجه لعلاء الدين مغلطاي

- الرجال :

وفيات الأعيان لابن خلكان ذيل التكملة لوفيات النقلة للحسيني

تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي تذهيب التهذيب للحافظ الذهبي

إكمال تهذيب الكمال لعلاء الدين مغلطاي

- الطبقات :

طبقات الشافعية للسبكي ❋طبقات الحفاظ للذهبي

- التاريخ :

تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي

البداية والنهاية للحافظ ابن كثير

obeikan.com

- اللغة :

لسان العرب لابن منظور　　شرح ألفية ابن مالك للجماعيلي

- العقيدة :

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية

درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية　　منهاج السنة لابن تيمية

الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم

- علوم الحديث :

تقريب علوم الحديث للنووي　　اختصار علوم الحديث لابن كثير

الاقتراح لابن دقيق العيد　　الموقظة للحافظ الذهبي

- كتب الأطراف :

أطراف الكتب الستة للمزي　　الكشاف في معرفة الأطراف للحسيني

- كتب التصوف :

شرح العمدة لابن دقيق العيد　　مدارج السالكين لابن القيم

مفتاح دار السعادة لابن القيم[1]

هذه نماذج من مؤلفات هذه المرحلة الخصبة التي أعقبت بل وعاصرت الحروب الصليبية والتترية على العالم الإسلامي . ويظهر من هذه الأمثلة أن حركة التكامل العلمي ، وظهور عصر الموسوعات العلمية ، وتشعب التخصصات أهم سمات مصنفات ذلك العصر ، مع غزارة العلم وكثرة العلماء ، مما أفاض على تلك الحقبة الذهبية طابع التميز والارتقاء .

نظرة الإمام الذهبي لعصره

كثيرًا ما تتجه أذهان العلماء وأبصارهم إلى الرعيل الأول ، والقرون الخوالي حيث يكثر الخير ، ويقل الشر ، وحيث يقترب العهد من أنوار النبوة وسلامة صدور الصحابة والتابعين .

---

(١) حسين محمد سيد ، الإمام ابن القيم وجهوده ص٣٢-٤٠ ، جامعة الأزهر ، كلية أصول الدين (رقم ٢٢٠٠-٢٢٠٢) ، دكتور علي الدخيل ، مقدمة الصواعق المرسلة ، ص٤٧ ، ٤٨ .

وإذا كان العلم والحفظ ـ نظرًا لأسباب حضارية متعددة ـ يراه العلماء في تناقص ، فدائمًا يتطلعون بأفئدتهم إلى الماضي ، وتكثر انتقاداتهم لذلك العصر الحالي مقارنة بمن مضى .

وأكثر العلماء يرون ذلك وينتقدون أحوال العلم والعلماء في عصورهم ، ومن قبل صرخ عبد القاهر الجرجاني ببيتيه هذين معبرًا عن ذلك :

كُبَّ على العلم لا ترمه ... ومل إلى الجهل ميل هائمِ
عش حمارًا تعش سعيدًا ... فالسعد في طالع البهائمِ

ومن بعده كتب ابن الصلاح على طُرَّة كتابه «علوم الحديث» الموسوم بمقدمة ابن الصلاح ما يشابه ذلك فقال :

أرى الدهر قدم جهاله ... فاسعد حظًّا به الجاهل
وأنظر حظي به ناقصًا ... أيحسبني أنني فاضل

وعلى غرار هذين العلمين وغيرهم كان الإمام الذهبي ينظر إلى أحوال العلم والعلماء في عصره مقارنة بأيام الجد والاجتهاد ، وبخاصة في القرون الثلاثة الأولى ، فيتحسر على ما آل إليه أمر علماء عصره فأخذ يعبر عن ذلك ، فالبرغم من انتشار المساجد والمدارس وكثرة العلماء ، وظهور المصنفات في شتى الفروع والفنون إلا أن التطلع للأيام الأول ، والعهد القريب بالنبوة له تأثير في نظرة الإمام الذهبي لعصره .

فالعلم أولا كان كثيرًا مع قلة الكلام ، والورع من إظهار العلوم والفضائل ولكن العلماء كما يرى الذهبي : «اليوم يكثرون الكلام مع نقص العلم ، وسوء القصد ، ثم إن الله تعالى يفضحهم ، ويلوح جهلهم وهواهم واضطرابهم فيما علموه»[1].

وإذا كانت اليقظة والوعي من سمات التحمل الذي يعتد به عند العلماء فإن الوضع العلمي لطرائق التحمل قد تغير ، وينعي الذهبي على طلاب عصره ذلك التراخي في الطلب ومراعاة الأمور الشكلية دون الجوهرية فيقول : «فكيف

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٥/٤٦٤ ، ٤٦٥) ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق شعيب الأرناءوط وآخرين ، ط١ ، ١٤٠١هـ -١٩٨١م

بالماضين لو رأونا اليوم نسمع من أي صحيفة مصحفة على أجهل شيخ له إجازة ، ونروي من نسخة أخرى ، بينهما من الاختلاف والغلط ألوان ، ففاضلنا يصحح ما تيسر من حفظه ، وطالبنا يتشاغل بكتابة أسماء الأطفال ، وعالمنا ينسخ ، وشيخنا ينام . . . ولقد اشتفى بنا كل مبتدع ، ومجّنا كل مؤمن»[١].

وكذلك الحال في الأداء ، فكثيرًا ما يحدث المحدث من غير أصوله معتمدًا على ذاكرته التي قد لا تسعفه كثيرًا ، يقول الذهبي : «التحديث من غير أصل قد عم اليوم وطم»[٢] ويقول في موضع آخر : «إذ الأكثر لا يدرون ما يروون ، ولا يعرفون هذا الشأن ، إنما سمعوا في الصغر ، واحتيج إلى علو سندهم في الكبر»[٣].

ويرى الذهبي أن روح الإبداع والاجتهاد والتميز تتلاشي شيئًا فشيئًا ليحل محلها الجمود والتقليد ، وكذلك اتجهت الأنظار إلى المنطق والفلسفة نقلا واقتباسا دون تحرير أو تعقل ، فيقول : «فلقد تفانى أصحاب الحديث وتلاشوا وتبدل الناس بطلبة يهزأ بهم أعداء الحديث والسنة ويسخرون منهم ، وصار علماء العصر في الغالب عاكفين على التقليد في الفروع من غير تحرير لها ، ومكبين على عقليات من حكمة الأوائل وآراء المتكلمين من غير أن يتعقلوا أكثرها فعم البلاء واستحكمت الأهواء ، ولاحت مبادئ رفع العلم وقبضه من الناس ، فرحم الله امرأً أقبل على شأنه وقصر من لسانه وأقبل على تلاوة قرآنه وبكى على زمانه وأدمن النظر في الصحيحين ، وعَبَد الله قبل أن يبغته الأجل»[٤].

وإن كان فقهاء الأمس على دراية بالحديث ، ومحدثوهم على دربة بالفقه فإن الأمر الآن على خلاف ذلك . يقول الذهبي : «فكان المحدثون إذ ذاك أئمة عالمين بالفقه أيضا ، وكان أهل الرأي بصراء بالحديث ، قد رحلوا في طلبه ، وتقدموا في

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١١/ ٩٩). (٢) المصدر السابق (١٦/ ٣٨٩).

(٣) الذهبي ، ميزان الاعتدال (١/٤) تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر ، بدون تاريخ أو طبعة .

(٤) الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٣٠) تحقيق عبد الرحمن اليماني ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م .

معرفته ، وأما اليوم فالمحدث قد قنع بالسكة والخطبة ، فلا يفقه ولا يحفظ ، كما أن الفقيه قد تشبث بفقه لا يجيد معرفته ، ولا يدري ما الحديث ، بل الموضوع والثابت عنده سواء ، بل قد يعارض ما في الصحيح بأحاديث ساقطة ، ويكابر بأنها أصح وأقوى»[١].

ويعترض الإمام الذهبي على صورة القاص في زمانه التي صار من يقوم بها يقوم بما يشبه التسول ، متحايلاً على الناس تارة ، وكاذبا على رسول الله ﷺ تارات ، متخذًا من الغرائب والمرققات ما يؤثر في قلوب الحاضرين وعيونهم ، ثم أموالهم !

بينما القاص في الزمان الأول «له صورة عظيمة في العلم والعمل»[٢].

ويتخذ الذهبي من الإمام العارف سهل بن عبد الله شيخ الصوفية قدوة للتصوف الحق في دعوته لكتابة الحديث والأخذ من العلوم بطرف فيقول : «هكذا كان مشايخ الصوفية في حرصهم على الحديث والسنة ، لا كمشايخ عصرنا الجهلة البطلة الأكلة الكسلة»[٣].

وقد امتدت المقارنة بين عصر الإمام الذهبي والعصور الأولى إلى القضاة ، منتقدًا حال القضاة والخطباء في عصره الذين شعروا بأنهم موظفون في الدولة ، ولم يكن لديهم استقلال الرأي خوفا على أعطياتهم وأجورهم ، فقال في ترجمة الوزير ابن هبيرة رحمه الله : «ولما ولاه المقتفي امتنع من لبس خلقة الحرير ، وحلف أنه لا يلبسها ، وذا شيء لا يفعله قضاة زماننا ولا خطباؤه»[٤] ثم انتقل إلى سلوك عموم الناس في عصره عند ذكره قول أبي خلدة : أدركت الناس وهم يعملون ولا يقولون ، وهم اليوم يقولون ولا يعملون . قال الذهبي : «وهم في زماننا لا يقولون ولا يعملون ؛ بل ربما يفشرون ويفجرون»[٥].

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٣٦ ، ٢٣٧). (٢) المصدر السابق (٤/٢٧٥).

(٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام (٢١/١٨٧)، تحقيق دكتور عمر تدمري دار الكتاب العربي ، ط.١، ١٩٨٧م .

(٤) الذهبي ، العبر (٤/١٧٢) تحقيق دكتور فؤاد سيد ، دكتور صلاح الدين المنجد ، دائرة المطبوعات والنشر بالكويت-١٩٦٤م .

(٥) الذهبي ، تلخيص الرد على ابن طاهر [ق ٥-ب] ، (رقم ٣٨٩٨) تصوف ، دار الكتب المصرية .

هكذا يتضح أن الذهبي رحمه الله ناقد لأحوال العلم والعلماء في عصره ، وهو يرنو إلى الرعيل الأول وإلى عصور النهضة الذهبية ، التي ربما تمنى أن يحيا زمانها بين البخاري ومسلم ، ومالك والشافعي وغيرهم ، ولكن هكذا دائما من ينظر إلى من سبق يستصغر من حضر ، فالفرق كبير والبون شاسع ، وهكذا سنة الحياة ، فكل سلف لما قبله خلف ، وكل خلف لما بعده سلف .

ولا نظن بهذا أن عصر الإمام الذهبي رحمه الله خلا من نجوم متلألئة وبحور زاخرة كالمزي وابن تيمية وابن رجب وابن كثير وغيرهم كثير ، ولكنها نظرة إلى الأعلى .

obeikan.com

ترجمة الحافظ الذهبي

● **اسمه ونسبه ومولده**[١]

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله ، التركماني الأصل ، الفارقي ثم الدمشقي ، الشافعي ، شمس الدين أبو عبد الله الذهبي ولد في ثالث ربيع الآخر سنة (٦٧٣ هـ).

● **أسرته**

قدم جده من ميافارقين إلى دمشق وقد كان أُميًّا ، لا نصيب له من علم أو رواية ، غير أن حفيده يصفه بأنه كان حسن اليقين بالله ، وعدل أبو شهاب الدين أحمد عن مهنة جده واتجه إلى صناعة الذهب المدقوق ، حتى عرف به فأطلق عليه اسم الذهبي ، وسمع الحديث ورغب في العلم ، وكانت صنعته تدر عليه دخلا طيبا ، كان يطرق بذلك المال أبواب الخير ، فمن ذلك فك الرقاب وتحريرها ، وكان له نصيب من قيام الليل .

● **نشأته**

كانت أسرة الذهبي ـ بتدينها وحبها للعلم ـ لها أكبر الأثر في نفس ذلك الصبي ، فنشأ محبًّا للعلم ، راغبا في تحصيله ، شغوفا به ، فقد أسرع أخوه من الرضاعة علي بن إبراهيم بن العطار في الاستجازة للذهبي في سنة مولده من مشايخ عصره الذين وصفهم ابن حجر بأنهم جمع جم[٢] منهم من دمشق أحمد بن عبد القادر العامري ، وعبد الصمد بن عبد الوهاب الدمشقي ومحمد بن علي الصابوني

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى (١٠٠) ، شذرات الذهب (١٥٤/٦) ، فوات الوفيات (٣١٥/٣) ، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٥٥/٣) ، الدرر الكامنة (٣/ ٣٣٦) ، والوفيات للسلامي (٥٦) ، فهرس الفهارس والأثبات (٤١٧) ، الرسالة المستطرفة ص١٧ الأعلام للزركلي (٣٢٦) ، الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام ص٧٥ ، الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام ص٢٧ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة (٣٣٦/٣) ، دار الجيل بيروت ، دون ذكر الطبعة أو المحقق أو تاريخ النشر .

الدمشقي ، ومن حلب أحمد بن عبد القاهر الحلبي ، ومن مكة مجد الدين أحمد ابن عبد الله الطبري ، ومحمد بن محمد القسطلاني ، وأحمد بن محمد الدمياطي ، ومن المدينة كافور بن عبد الله الطواشي[١].

ثم يمضي ذلك الطفل الصغير في أولى مراحل تعليمه إلى أحد المؤدبين المختصين بتعليم الصبيان ، وهو علاء الدين علي بن محمد الحلبي المعروف بالبصبص ، وقد أثنى عليه الحافظ الذهبي خبرة وخطًا وحسن تعليم[٢] فمكث عنده أربع سنوات .

وسيرًا مع التقاليد العلمية فالمرحلة القادمة بعد المكتب هو تحفيظ القرآن الكريم ، فتلقن القرآن الكريم على يد المقرئ الصالح مسعود بن عبد الله : إمام مسجد الشاغور[٣].

● طلبه للعلم :

اتجه الحافظ الذهبي رحمه الله نحو كتاب الله العزيز ، فلم يكتف بختم القرآن الكريم حتى شرع في الوصول إلى قمة ذلك العلم ؛ ليصل إلى القراءة بالقراءات السبع ، فقصد الإمام الفاضلي رحمه الله ، ولكن القدر لم يمهله حتى ودع الشيخ الدنيا ، والذهبي لم يتجاوز سورة القصص[٤].

ولكن همة الذهبي العالية جعلته يبحث عن أقران الإمام الفاضلي ، فأكمل الختمة ـ بالجامع الكبير ـ على الإمام المقرئ محمد بن عبد العزيز الدمياطي الدمشقي الحافظ المجود[٥] ثم قرأ بالسبع على مشايخ عدة .

وكما حرص على تلاوة القرآن الكريم وقراءته بالقراءات السبع على مقرئين عدة ، فقد شغف بالحديث وسماعه ، ولقاء الشيوخ وقراءة الحديث عليهم ، وكان

---

(١) الذهبي ، معجم الشيوخ (٣٧ ، ٥٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٣١٤ ، ٣٤٨ ، ٥٤٢) ، تحقيق دكتور محمد الجيب ، مكتبة الصديق ، ط . ١ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

(٢) المصدر السابق ص٣٨٥ .

(٣) المصدر السابق ص٦١٦ .

(٤) الذهبي ، معرفة القراء الكبار (٢/٧٠٣ ، ٧٠٤) تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة . ط . ١ .

(٥) المصدر السابق (٢/ ٧٠٨ ، ٧٠٩).

له في ذلك نهم ورغبة ، وقد أثر فيه علم الدين البرزالى ، وحبب إليه طلب الحديث ، فسمع منه وأخذ عنه[١].

ودفعه نهمه إلى سماع الحديث ما أمكن ذلك ، فعند السماع يكون التقميش ، وعند الأداء يكون التفتيش ، فقد سمع من محمد بن أيوب بن مكارم بن النحاس وقال : « سمعنا منه ولا تحل الرواية عنه . . . اتحادي مجاهر »[٢].

وسمع من محمود بن يحيى التميمي الدمشقي بقراءة علم الدين البرزالي ، وقال عنه : « كان سيِّئ الحال سفيهًا »[٤].

وحمله الشغف بالحديث إلى أن يقرأ الحديث على شيخ أصم[٥] ، وأن يتحمل الشيخ على عسارته[٦].

● **رحلاته . .**

رغب الحافظ الذهبي رحمه الله في الرحلة إلى مشاهير العلماء لتحصيل العلوم النافعة ، بالرواية العالية ، وكان يتابع أخبار علماء كل فن ، وأين يتواجدون ، غير أن أباه لم يكن يمكنه من ذلك ، ولا يسمح له ، وكان الحافظ الذهبي بأبيه برًّا ، لا يملك إلا طاعته[٧].

ولعل ذلك المنع من الأب بدافع من الخوف عليه ، والحب له ، ورغبة كل أب في جوار فلذة كبده ، على أنه لما اشتد عوده سمح له بالرحلة ، شريطة ألا يمكث في رحلة أكثر من أربعة أشهر فوفى بذلك الذهبي[٧].

إن الحِفاظ على معالم الدين والتفقه فيه ومعرفة حدود الله وأوامره ونواهيه مطلب عظيم ، يستحق التضحية بكل غالٍ ونفيس ، ولو بلغ ذلك مغادرة الأوطان

---

(١) الكتبي ، فوات الوفيات (١٩٧/٣، ١٩٨)، تحقيق دكتور إحسان عباس ، دار صادر لبنان ، بدون تاريخ الطبع .

(٢) الذهبي ، معجم الشيوخ (٤٨٥).

(٣) المصدر السابق (٦١٤).

(٤) المصدر السابق (٦١٢).

(٥) المصدر السابق (٧٩).

(٦) الذهبي ، معجم الشيوخ (٢٩٢) ، معرفة القراء الكبار (٦٨٩/٢).

(٧) الذهبي ، معرفة القراء الكبار (٦٩٨/٢).

وفراق الأهل والأحبة ، وإيثار خشن العيش والفراش على لذيذ الطعام ووثير الأسِرَّة .

فكانت الرحلات من أجل صيانة الحديث وعلومه من الأخطاء والأوهام ، ولتحصيل الحديث الشريف من وجوهٍ عدة ؛ مقارنةً بين تلك الوجوه ، واستخلاصًا لصحيح السنة النبوية ، بعيدًا عن الضعيف والباطل والموضوع .

ولم تكن تلك الرحلات للتربح التجاري ـ كما هي صورة الإعارة الآن ـ وإنما كان دافعها إيمانيًا ، ينفق فيها المرتحل الذخائر ، ويفني الأموال[1] ولقد سلك الحافظ الذهبي هذا الدرب ، وتجشم ذلك السبيل ، فتعددت رحلاته ، وكثر شيوخه ، وحصل له من تلك الرحلات اطلاعات واسعة ، ومن لقاء هؤلاء الشيوخ خبرات متعددة ، مكن ذلك له الأخذ بأسباب رسوخ القدم ، ووضوح الحجة ، وكشف المعضلة ، وحل العويصة ، وأعانه ذلك على تكوين شخصية ناقدة لا ناقلة ، لا يسلم بما ينقل قبل إمراره على علومه ومعارفه ، وما رزقه الله من فهم ويقظة .

● **رحلاته الداخلية (بلاد الشام) :**

رحل الحافظ الذهبي في رحلات قصيرة داخل بلاد الشام ، وإن كانت اليوم توصف بالقصر ، فإنها وقتها لم تكن كذلك ، فوعورة الطرق ، وعدم أمنها أحيانًا مع بدائية وسائل التنقل ، تجعل من تلك الرحلات لونًا من ألوان العذاب .

فقد أقبل رحمه الله على علماء دمشق وما جاورها ، ثم بصرى ، فحمص ، فحماة ، فالمعرة ، ورحل إلى حلب مع والده .

ثم رحل إلى بعلبك وطرابلس ، وذهب إلى القدس ونابلس والرملة والكرك[2].

---

(١) انظر : منهج النقد عند المتقدمين من المحدِّثين للباحث ، مبحث الرحلة ص٢٤٣-٢٥٣.

(٢) عبد الستار الشيخ ، الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام ص٤٨-٥٤ ، بشار عواد ، الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام ، ص٨٨-٩٠ ، مطبعة عيسى البابي ، ط . ١ ، ١٩٧٦م ، محمد شوقي خضر ، الذهبي المحدث ص٣٩ .

● رحلته إلى مصر :

برفقة أخيه من الرضاع داود بن إبراهيم بن العطار أقبل الذهبي على مصر فسمع بالقاهرة ، والإسكندرية ، وبلبيس وغيرها ، وبدأت هذه الرحلة (٦٩٥هـ)[١] ، ويبدو أنه رحل إليها مرة أخرى (٧٠٥هـ) كما ذكر في ترجمة محمد بن سنجر المحدث المصري[٢].

● رحلته إلى البلاد المقدسة :

وفي سنة (٦٩٨هـ) رحل الحافظ الذهبي إلى البلاد المقدسة حاجًا ومرتحلا ، فسمع بمكة وعرفة ومنى وتبوك والمدينة[٣].

ولعل الذهبي رحمه الله قد رحل إلى أكثر من أربعين بلدًا يطلب العلم ويلاقي الشيوخ ويسمع ويُدَوِّن ، وذلك ما يتضح من ترجمته لابن المقري حيث قال : « انتقيت من معجمه أربعين حديثًا سمعتها بأربعين بلدًا »[٤].

فكم تحمل المشاق ، وصبر على فراق الأهل والديار ، وأتعب جسده ، وبذل وقته ، وأنفق ماله ، فلله دَرُّه ، وهو يكافئه .

● شيوخه :

كان طواف الإمام الذهبي على علماء دمشق ثم رحلاته المتعددة في بلاد الشام ومصر والحجاز ، ونهمه العلمي ، واطلاعه الواسع ، وهمته العالية سببًا في تعدد شيوخه الذين أخذ عنهم ، فقد أخذ وأجيز له عن أكثر من ألف شيخ ، وها هو معجم شيوخه يغني عن الاستقصاء والعد .

ومن أعيان شيوخه وأعلام أساتذته :

١- أحمد بن إسحاق الأبرقوهي . (٦١٥-٧٠١ هـ)

٢- ابن فرح الإشبيلي . (٦٢٥-٦٩٩ هـ)

---

(١) الذهبي ، معجم الشيوخ ص٢٣٦ ، ٦٥٤ ، ٥٦٠ .

(٢) الذهبي ، المعجم المختص (٢٣٣ ، ٢٣٤).

(٣) الذهبي ، معجم الشيوخ ، ٤٠٠ ، ٥٢٤ ، ٢٨٣ ، ٤٠٤ .

(٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٤٠١/١٦).

٣- ابن الظاهري . (٦٢٦-٦٩٦ هـ)
٤- أبو العباس الحجار . (٦٢٣-٧٣٠ هـ)
٥- أبو الفضل ابن عساكر . (٦١٤-٦٩٩ هـ)
٦- إبراهيم بن داود الفاضلي . (٦٢٢-٦٩٢ هـ)
٧- برهان الدين الفزاري . (٦٦٠-٧٢٩ هـ)
٨- الحافظ الدمياطي . (٦١٣-٧٠٥ هـ)
٩- عبد الرحمن بن عبد الحليم سحنون . (٦١٦-٦٩٥ هـ)
١٠- سنقر القضائي الزيني . (٦١٩-٧٠٦ هـ)
١١- عبد الكريم بن عبد النور المصري . (٦٦٤-٧٣٥ هـ)
١٢- عثمان بن محمد التوزي . (٦٣٠-٧١٣ هـ)
١٣- عثمان بن يوسف النويري . (٦٧٣-٧٥٦ هـ)
١٤- أبو الحسين اليونيني . (٦٢١-٧٠١ هـ)
١٥- أبو حفص بن القواس . (٦٠٦-٦٩٨ هـ)
١٦- محمد بن أحمد بن تمام . (٦٥١-٧٤١هـ)
١٧- ابن دقيق العيد . (٦٢٥-٧٠٢ هـ)
١٨- محمد بن أبي الفتح البعلبكي . (٦٤٥-٧٠٩ هـ)
١٩- محمود بن أبي بكر القرافي . (٦٤٧-٧٢٣ هـ)
٢٠- أبو بكر بن محمد المرسي . (٦٥٦-٧١٨ هـ)

● **شيخاته :**

للمرأة دور كبير في المجتمع ، فقد كانت أم سليم تقاتل مع النبي ﷺ ، وكانت رفيدة تداوي الجرحى ، وكانت أم سلمة صاحبة المشورة يوم الحديبية ، وكانت عائشة رضي الله عنها ملجأ الكثير من الصحابة في الفتيا ، فحفظت الكثير من سنن النبي ﷺ وقد أراد لها الإسلام أن تساهم في بناء لبنات صرح الأمة ، وظلت النساء تشارك الرجال في التعلم والتعليم ، وها هو الشيخ الحافظ الذهبي رحمه الله

obeikan.com

يضمِّن معجم شيوخه أكثر من مائة من شيخاته اللاتي أخذ عليهن العلم ، ومن هؤلاء :

١- خديجة بنت يوسف بن غنيمة أمة العزيز البغدادية . (٦٢٦-٦٩٩ هـ)
٢- زينب بنت أحمد بن عمر بن أبي بكر بن شكر المقدسية . (٦٢٨-٧٢٢ هـ)
٣- فاطمة بنت إبراهيم بن محمود البعلبكي . (٦٢٥-٧١١ هـ)
٤- هدية بنت عبد الحميد بن محمد المقدسية . (ت ٦٩٩ هـ)
٥- هدية بنت علي بن عسكر البغدادية الصالحية . (٦٢٦-٧١٢ هـ)

● **أقـــرانـــه :**

من صفات العالم المتقن ألا يقتصر في الأخذ على طبقة أو فئة دون الآخرين ، وأن يأخذ عمن هم أكبر منه ، ومن هم في سنه ، ومن هم أصغر منه ، فليس في ذلك حياء ، وقد كان الحافظ الذهبي رحمه الله كذلك ، وكان يفيد أقرانه ويستفيد منهم ، ويبذل ما عنده ، ويقبل ما عندهم ، وهكذا ثمرة العلم .

فمن أقرانه :

١- أبو الحجاج المزي . (٦٥٤ -٧٤٢هـ)
٢- ابن تيمية . (٦٦١ -٧٢٨هـ)
٣- علم الدين البرزالي . (٦٦٥ -٧٣٩هـ)
٤- أحمد بن يعقوب الصابوني . (٦٧٥ -٧٣١هـ)
٥- عبد الرحمن بن مسعود الحارثي . (٦٧١ - ٧٣٢هـ)
٦- تقي الدين السبكي . (٦٨٣ -٧٥٦هـ)
٧- محمد بن عيسى البعلي . (٦٦٦ -٧٣٠هـ)
٨- ابن سيد الناس . (٦٧١ -٧٣٤هـ)
٩- ابن القيم . (٦٩١ -٧٥١هـ)

● **تلاميذه :**

بعد هذه الرحلات الدءوبة ، وذلك التحصيل العلمي الغزير ، وتلك المثابرة على لقاء الشيوخ والسماع منهم ، فقد أثمرت هذه الرحلات ودنا جناها حيث عين الشيخ في العديد من مدارس الحديث بدمشق ، فكان ملاذًا لطلاب الحديث ،

يفدون إليه من كل صوب ، طلبًا للسماع والإجازة ، وسؤالا عن معضلات المسائل ، فتتلمذ عليه العديد منهم ، وقد ذكر الأستاذ عبد الستار الشيخ منهم[١] :

١- أحمد بن محمد المقدسي . (٧١٤ -٧٦٥هـ)
٢- أحمد بن محمد العلائي . (٧٠٢-٧٤٥هـ)
٣- بدر الدين ابن جماعة . (٧٢٥ -٧٩٠هـ)
٤- ابن كثير الدمشقي . (٧٠١ -٧٧٤هـ)
٥- عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي . (٧٢٨ -٧٧١هـ)
٦- محمد بن رافع السلامي . (٧٠٤ -٧٧٤هـ)
٧- محمد بن علي الحسيني . (٧١٥ -٧٦٥هـ)
٨- خليل بن أيبك الصفدي . (ت ٧٦٤ هـ)

● **ثناء العلماء عليه :**

درج المصنفون لكتب التراجم على الثناء والمديح ، والإطراء والتبجيل لشيوخهم الذين أخذوا عنهم ، واستفادوا منهم ، حتى أن المطالع للتراجم المتعددة يكاد يجد عبارات توحي بالتفرد في العلم والحفظ ، وبأن الحفاظ والعلماء قد ختموا بذلك المترجم له ، وهكذا .

ولكن ذلك يقف عند حدود أولئك النفر القليل الذين أخذوا عنه وتتلمذوا عليه ، ومع تعاقب الأجيال وتعدد المصنفين تجد ذكر ذلك الشيخ قد خمل ، واختلط بغيره من العلماء الذين توقفت ذاكرة التاريخ عن التحدث عنهم .

أما إمامنا الذهبي ـ كأحد الجهابذة الأفذاذ ـ فقد أجمع على فضله الموافق والمخالف ، وتحدثت بعلومه القرون تلو القرون ، فمن خالفه لم يجسر على إهمال الثناء على حفظه وفهمه ، ومن جاء بعده لم يكن له إلا الاعتراف بعلمه وفضله .

وهكذا شأن الأئمة ، يرفع الله قدرهم ، ويحيي ذكرهم ، وإن نال منهم خصومهم ؛ فإن هذا النيل لا يلبث أن يتبدد في أودية التيه ويختفي مع السراب .

---

(١) عبد الستار الشيخ ، الإمام الذهبي ص٣٢٨ .

هذه بعض كلمات في ثناء بعض العلماء على شيخنا الذهبي رحمه الله ، آثرت عدم الإطالة ، وأن يكون ذلك في عُجالة ، والبعض يُغنِي عن الكل .

قال تلميذه السبكي رحمه الله في الطبقات الكبرى : «بحر لا نظير له ، وكنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة ، إمام الوجود حفظًا ، وذهب العصر معنى ولفظًا ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال في كل سبيل ، فكأنما جمعت الدنيا في صعيد واحد ، فنظرها ثم أخبر عنها إخبار من حضرها . . . وما زال يخدم في هذا الفن إلى أن رسخت فيه قدمه ، وتعب الليل والنهار ، وما تعب لسانه وقلمه ، وضربت باسمه الأمثال وسار اسمه مسير لقبه الشمس»[١].

وقال ابن قاضى شهبة : «القائم بأعباء هذه الصناعة ، وحامل لواء أهل لسنة والجماعة ، إمام العصر حفظًا وإتقانًا ، وفرد الدهر الذي يذعن له أهل عصره ويقولون : لا ننكر أنك أحفظنا وأتقانا . . . وهو على الخصوص سندي ومعتمدي ، وله عليَّ من الجميل ما أخجل وجهي»[٢].

وقال تلميذه صلاح الدين الصفدي : «حافظ لا يُجارى ، ولافظ لا يُبارى ، مع ذهن يتوقد ذكاؤه ، ويصح إلى الذهب نسبته وانتماؤه . . . لم أجد عنده جمود المحدِّثين ولا كودنة النقلة ، بل هو فقيه النظر ، له دربة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات ، وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثًا يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن أو ظلام إسناد ، أو طعن في رواة ، وهذا لم أر غيره يعاني هذه الفائدة فيما يورده»[٣].

وقال الحسيني : «جَرَح وعَدَّل ، وفرَّع وصحح وعلل ، واستدرك وأفاد ، وانتقى واختصر كثيرًا من تآليف المتقدمين والمتأخرين . . . وكان أحد الأذكياء المعدودين ، والحفاظ المبرزين»[٤].

---

(١) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (٩/١٠٠- ١٠٣).
(٢) السبكي ، طبقات الشافعية الوسطى (٣/٥٥)
(٣) الصفدي الوافي بالوفيات (٢/ ١٦٣)
(٤) الحسيني ، ذيل تذكرة الحفاظ (٢٢)

وقال ابن حجر : «مهر في فن الحديث ، وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفًا ، ورغب الناس في تواليفه ، ورحلوا إليه بسببها وتداولوها قراءة ونسخًا وسماعًا»[١].

وقال في نزهة النظر : «هو من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال»[٢].

وقال السيوطي : «والذي أقوله : إن المحدِّثين عيال الآن في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة : المزي والذهبي والعراقي وابن حجر»[٣].

وقال الشوكاني : «جميع مصنفاته مقبولة مرغوب فيها ، وله فيها تعبيرات رائقة ، وألفاظ رشيقة غالبًا ، لم يسلك مسلكه فيها أهل عصره ، ولا من قبلهم ولا من بعدهم ، فبالجملة فالناس في التاريخ من أهل عصره فمن بعدهم عيال عليه ، ولم يجمع أحد في هذا الفن كجمعه ، ولا حرره كتحريره»[٤].

وقال ابن ناصر الدين الدمشقي : «إمام التعديل والجرح ، والمعتمد عليه في المدح والقدح»[٥].

ومما نظم في مدحه للأطرابلسي :

ما زلت بالسمع أهواكم وما ذكرت ... أخباركم قط إلا ملت من طرب

وليس من عجب أن ملت نحوكم ... فالناس بالطبع قد مالوا إلى الذهب[٦]

وبعبارات ممتزجة بالتواضع ، وألفاظ تفوح منها رائحة نكران الذات ، يترجم الإمام الذهبي لنفسه في معجمه المختص فيقول : « . . . وجمع تواليف يقال مفيدة ، والجماعة يتفضلون ويثنون عليه ، وهو أخبر بنفسه وبنقصه في العلم والعمل ، فالله المستعان ، ولا قوة إلا بالله ، وإذا سلم لي إيماني ، فيا فوزي»[٧].

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة (٣/ ٤٢٦ ، ٤٢٧) .

(٢) ابن حجر ، نزهة النظر ص٧٥ ، مكتبة السنة ، بدون ذكر سنة الطبع .

(٣) السيوطي ، طبقات الحفاظ ص٥١٨ .

(٤) الشوكاني ، البدر الطالع (٢/١١٠، ١١١) طبع الشيخ معروف عبد الله بمصر . ط ١ ، ١٣٤٨هـ .

(٥) ابن ناصر الدمشقي ، الرد الوافر ص١٩ .

(٦) المصدر السابق ص٣٢ ، وفهرس الفهارس (١/٤٢٠).

(٧) الذهبي ، المعجم المختص .

ومن هذه الكلمات يستقر في القلوب والعقول علو قدره ، ورفعة منزلته ، وشمول علمه ، وتعدد معارفه ، واجتماع الموافق والمخالف ، والسابق واللاحق على عظيم مكانته ورسوخ قدمه ، مع التقوى والزهد والورع ، مع النظرة النقدية الفاحصة لما يورده أو يختصره فلا يمرر الحديث أو الأثر ، ولا القول أو الخبر إلا ويبين حاله في المتن أو الإسناد . وهو إمام يعتمد على تصانيفه ، وجرحه وتعديله ، ونقده وتحريره .

● **ما أخذ على الإمام الذهبي رحمه الله :**

ما من شخصية يرتفع شأنها ويذيع صيتها إلا ولها طرفي نقيض ؛ بين المبالغ في المدح ، والمفرط في الذم ، وتختلف أسباب هذا المدح وذلك الذم ، وعند الله تجتمع الخصوم!!

وشيخنا رحمه الله على جلالة سيرته ، وحسن تآليفه ، وكثرة المنتفعين به لم يسلم من انتقادات متعددة ، منها ما يغلب عليه الهوى والتعصب ، ومنها ما يصبغ بصبغة علمية متجردة عن تأثير المذاهب العقدية التي وقع تحت تأثيرها من يحذر الناس منها ، ومجمل ما عيب على الإمام الذهبي :

١- ما ذكره ابن المرابط في جزء له أن الذهبي يذكر مساوئ الناس ويثلبهم وأن قسما كبيرا من تاريخه محض غيبة[١] .

٢- ما ذكره التاج السبكي من أنه رحمه الله كثير الازدراء للأشاعرة ، وأن تاريخه مشحون بالتعصب المفرط ، وأنه استطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعية والحنفية مع زيادة مديح للمجسمة[٢] وأنه يطيل تراجم الحنابلة ويقتضب في تراجم الأشاعرة[٣] .

وأفتى التاج السبكي بأنه لا يجوز الاعتماد على أقوال الإمام الذهبي في مدح

---

(١) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص٥٧ ، ٥٨ .

(٢) التاج السبكي ، قاعدة في المؤرخين ص٥٩ ، ٦٠ ، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة ، مكتبة الرشد ط . ٥ ، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م .

(٣) المصدر السابق ص٦٦ .

حنبلي أو ذم أشعري[١]، واتهمه بأنه يروج الأكاذيب مع علمه بها[٢]، وأنه متحامل على الفقهاء غير الحنابلة[٣] ووصل به المآل إلى وصفه ـ رحمه الله وبرأه ـ ، بأنه مطبوع على قلبه[٤].

٣- ما ذكره الحافظ صلاح الدين خليل بن كليكلدي أنه رحمه الله يغلب عليه مذهب الإثبات وينافر التأويل ويغفل عن التنزيه ، مما انحرف بمزاجه انحرافا شديدا عن أهل التأويل وميلا إلى أهل الإثبات[٥].

وهذا الجانب من النقد ينبغي مراعاة الخلاف المذهبي فيه ، وكيف أن الإمام السبكي رحمه الله وقع فيما حذر منه ، وسار على درب طالما نهى السائرين عنه ، ورتع في الحمي الذي طالما رام ألا يحوم حوله ، وأنه قد بالغ في ذم شيخه الذي خرجه في هذه الصناعة .

وقد رد الأستاذ عبد الستار الشيخ[٦] على تلك الافتراءات وهذه الدعاوى وأظهر تهافتها ، بلا مدافعة .

فقول ابن المرابط يدفعه قول الإمام أحمد : «هذا نصيحة ، ليس هذا بغيبة»[٧] وقال في رواية أخري : « إذا سكت أنا وأنت ، فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم»[٨] ، وقول عبد الرحمن بن مهدي : « لأن يكون خصمي في الآخرة رجل من عرض الناس أحب إليَّ من أن يكون خصمي في الآخرة النبي ﷺ ، يقول : بلغك عني حديث ، وقع في وهمك أنه غير صحيح ، يعني فلم تنكره» [٩].

---

(١) التاج السبكي ، قاعدة في المؤرخين ص٧١ .

(٢) التاج السبكي ، قاعدة في الجرح والتعديل ص٣٨ ، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة ، مكتبة الرشد ، ط . ٥ ، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م .

(٣) المصدر السابق ص٣٨ ، ٣٩ .

(٤) المصدر السابق ص٣٩، ٤٠.

(٥) المصدر السابق ، ص٣٦ .

(٦) عبد الفتاح الشيخ ، الحافظ الذهبي ص٢٣٤ - ٢٦٣ .

(٧) ابن رجب الحنبلي ، شرح علل الترمذي ص٦٠ ، تحقيق صبحي السامرائي ، عالم الكتب ، ط ٣ ، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م .

(٨) المصدر السابق ص٦٠ .

(٩) ابن عدي ، الكامل (٩٨/١).

وكذلك رد هذه الدعوى الحافظ السخاوى[١].

وأقوال السبكي يدفعها ما يلي :

١- طول الترجمة وقصرها عند الذهبي رحمه الله يراعي فيها مكانة المترجم له وشهرته بين أهل علمه ، فالذهبي قد طول تراجم ابن تومرت والحلاج وأبي العلاء المعري وطاغية الزنج ، في حين اختصر تراجم مسلم والنسائي!! وغيرهم كثير من حفاظ الحديث .

٢- أحيانا تقصر الترجمة إيثارًا للعافية ، ورغبة في عدم نشر سوءات المترجم له ، أو نشر ادعاءات المخالف له ، من ذلك اكتفائه في ترجمة ابن عربي على صفحتين ، والنقد الموجه إليه يحتمل كتابًا !!

٣- دعوى التحامل على الأشاعرة يردها النظر في ترجمة الأشعري نفسه وجعله في جملة علماء السلف ، وكذلك إطرائه لكثير من الأشاعرة كالباقلاني وأبي ذر الهروي وغيرهم . كذلك ما جاء عن الذهبي نصًا أنه يبغض الغلاة من الأشاعرة والحنابلة على حد سواء[٢].

٤- امتداح الذهبي للحنابلة ليس على الإطلاق ، وإنما بحسب استحقاق ذلك الحنبلي أو عدم ذلك ، فقد أكثر الرد والتغليظ على الحافظ ابن الجوزي الحنبلي وخالفه في مسائل كثيرة من فقهه ، كما انتقد أبا الحسن الزاغوني الحنبلي وكذا عبد الستار بن عبد الحميد المقدسي الحنبلي[٣].

● **النقد المنهجي للإمام الذهبي :**

ومما وجه للحافظ الذهبي رحمه الله من انتقادات حملت طابع المنهجية :

١- **التناقص في أحكامه في بعض المصنفات** ، فقد قام دكتور عبد الله بن مراد السلفي بانتقاد الحافظ الذهبي ، من خلال تعليقاته على ما صححه الحاكم في المستدرك ووافقه الذهبي ، وأظهر الباحث العديد من النماذج على ذلك .

---

(١) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ (٥١ ، ٥٢). (٢) الذهبي ، السير (٢٠/٤٥ ، ٤٦).

(٣) انظر ذلك بالتفصيل في الدراسة الماتعة للأستاذ عبد الفتاح الشيخ ص٢٣٤-٢٦٣ .

فمما ذكره : حديث موسى بن طلحة «أن طلحة نحر جزوراً وحفر بئراً يوم ذي قرد فأطعمهم وسقاهم فقال النبي ﷺ : **يا طلحة الفياض** ، فسمي طلحة الفياض» قال الحاكم صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي ، والإسناد فيه محمد ابن رجاء ، اتهمه الذهبي[١] .

ومن ذلك حديث ابن عباس مرفوعا : «من حج ماشيا حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة . . . الحديث» وقال : «صحيح الإسناد وسكت عليه الذهبي»[٢] وقال في الميزان : هذا ليس بصحيح .

ومن ذلك حديث أنس «أن أبا ذر الغفاري بال قائما فانتضح من بوله على ساقيه وقدميه . . . » الحديث ، صححه الحاكم وأقره عليه الذهبي[٣] ، والإسناد فيه بشار بن حكيم قال الذهبي : منكر الحديث .

وحديث بريدة : «لما أخذوا في غسل رسول الله ﷺ فإذا هم بمناد من الداخل : لا تنزعوا عن رسول الله قميصه» وقال : صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي . وقد ذكره الذهبي في الميزان ، وقال : حديث منكر[٤] ، وذكر المؤلف أمثلة أخرى غير ذلك .

والحق أن المعرفة بتاريخ تصنيف كلٍّ من الكتابين : تلخيص المستدرك وميزان الاعتدال ، وكذلك المعرفة بكل مرحلة علمية كان فيها الذهبي عند تصنيف هذين المصنفين ، والاطلاع على رأي الذهبي نفسه في تلخيصه على مستدرك الحاكم يُذهب كثيرا من أوجه اللوم للحافظ رحمه الله ، فالذهبي أولا علق المستدرك في مراحل الطلب الأولى ، وقام باختصاره على عادته في اختصار أمهات الكتب ، وكلما عنَّت له فائدة يستحضرها سارع بوضعها ، وإن لم يتيسر له ذلك سكت ، وكما هو معلوم ، لا ينسب لساكت قول ، فلا أرى سكوت الذهبي رحمه الله إقرارا ، بقدر ما أراه تعبيرا عن عدم النضج ، وعدم تحرير المسألة وقتئذ .

---

(١) عبد الله مراد السلفي ، تعليقات على ما صححه الحاكم وأقره الذهبي ص ٣٠٣ دار الفضيلة ، ط . ٤ ، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م ، وانظر : الميزان (٣/٥٤٥).

(٢) عبد الله مراد السلفي ، تعليقات على ما صححه الحاكم وأقره الذهبي ص١١٢ ، وانظر ميزان الاعتدال (٣/٣١٢).

(٣) عبد الله مراد السلفي ، تعليقات على ما صححه الحاكم وأقره الذهبي ص٣٧١ .

(٤) عبد الله مراد السلفي ، تعليقات على ما صححه الحاكم وأقره الذهبي ص٨٦ ، وانظر الميزان (٣/٢٩٣ ، ٢٩٤).

وذلك بخلاف مصنفه ميزان الاعتدال ، فقد ألفه رحمه الله أوان نضجه العلمي واستوائه على سوقه ، فالبون شاسع ، والميزان من أهم مصنفات الذهبي رحمه الله وأعمقها نقدا ، وأدقها تحريراً .

والذهبي رحمه الله قد ألمح إلى ذلك فقال عن ذلك المصنف : « قد اختصرته ويعوز عملا وتحريرا »[١] وهذه إشارة لا تنبئ عن تناقض في الحكم على الراوي أو المتن ، وإنما عن مرحلتين مختلفتين في التاريخ العلمي للحافظ ، فهو غير راضٍ رحمه الله عن تلك الصورة لاختصاره المستدرك ، ولعله أراد تنقيحه وإكمال تعليقاته عليه ، ولكن لم تواته الصحة ولم يمهله الأجل .

٢- انتقاد الإمام ابن حجر رحمه الله :

تعقب الحافظ ابن حجر رحمه الله الحافظ الذهبي في مواطن كثيرة ، وهذه التعقبات منها ما هو خطأ صريح ، ومنها ما هو محل خلاف وحوار ، ومنها ما هو مردود .

فمن أمثلة الانتقاد على الخطأ الصريح :

قول الإمام الذهبي عن الحسن بن الحسين بن عاصم الهسنجاني : كذَّبه أبو حاتم ، قال ابن حجر : فلم يكذبه أبو حاتم[٢] ، والذي في الجرح والتعديل نقل ذلك عن محمد بن أيوب[٣].

ومن ذلك قول الحافظ الذهبي في سعيد بن هاشم الطبري وسعيد بن هاشم العتكي وسعيد بن هاشم البكري : لم أرهم في رواة الكتب ، ولا هم في كتاب ابن أبي حاتم وتعقبه ابن حجر ، بأن ذلك في المتفق والمفترق للخطيب وثقات ابن حبان[٤].

من ذلك قوله رحمه الله في سليمان بن داود بن قيس الفراء المدني أنه يروي عن يحيى بن سعيد وعبد الله بن يزيد بن هرمز .

---

(١) الذهبي ، السير (١٧/ ١٧٥).

(٢) ابن حجر ، لسان الميزان (٢١/٣) ، تحقيق غنيم عباس ، مكتبة ابن تيمية ، ط . ١ ، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م .

(٣) ابن أبى حاتم ، الجرح والتعديل (١٩٨/٧).

(٤) ابن حجر ، اللسان (٥٠/٤).

قال ابن حجر : وقد خلط المؤلف ترجمته بترجمة أبيه . قال ابن حبان في الثقات في الطبقة الرابعة : يروي عن أبيه ، عن يحيى بن سعيد ، وزيد بن أسلم ... فهذا يدل على أنه لا يروي عن يحيى وطبقته إلا بوساطة أبيه[١].

ومن ذلك إلصاق عهدة الأحاديث البواطيل خطأ إلى غير المتهم بها .

ففي ترجمة صباح بن يحيى ذكر حديث : « كان الناس من شجر شتى وكنت أنا وعلي من شجرة واحدة » وقال : أورده له العقيلي .

قال ابن حجر : ولفظ العقيلي : صباح بن يحيى . . . والآفة في هذا الخبر من غيره[٢].

ومن ذلك ما وقع من اختصار مخل للمعنى يوهم غير القصد ، ففي ترجمة صدقة بن رستم الإسكاف ، قال الذهبي : قال البخاري : لم يصح حديثه .

قال ابن حجر : قال البخاري في الضعفاء : لم يصح حديثه لحال عبيد[٣].

وفي ترجمة سمعان بن مالك نقل الذهبي عن أبي زرعة قوله : ليس بالقوي .

قال ابن حجر : ولفظ أبي زرعة : الحديث الذي رواه سمعان عن أبي وائل في بول الأعرابي في المسجد . . . حديث ليس بقوي[٤].

وفي ترجمة أبرد بن أشرس قال الذهبي : « قال ابن خزيمة : كذَّاب وضَّاع » ، قلت حديثه : « **تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة . . .** » اهـ .

قال ابن حجر : وهذا من الاختصار المجحف المفسد للمعنى ، وذلك أن المشهور في هذا الحديث : « **كلها في النار إلا واحدة** » فقال هذا في روايته عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن أنس : « **كلها في الجنة إلا واحدة** قالوا : من هي؟ قال : **الزنادقة وهم أهل القدر** »[٥].

وإذا سلمت تلك الانتقادات للحافظ ابن حجر ، على ندرتها ، فإن انتقادات أخرى لم تسلم له ، وكان اجتهاد الحافظ الذهبي رحمه الله أقرب إلى الصواب ؛ إذ

---

(١) ابن حجر ، اللسان (٤/٩١).
(٢) المصدر السابق (٤/١٨٢).
(٣) المصدر السابق (٤/١٨٧).
(٤) المصدر السابق (٤/١١٦).
(٥) المصدر السابق (١/٢٢٤).

العبرة ليست بالمخالفة ، وإنما بثبوت مقتضيات تلك المخالفة ، وارتقاء وجه الاعتراض إلى حيز القبول .

ومما انتقده الحافظ ابن حجر على الإمام الذهبي ، وفي نقده نظر :

انتقد الذهبي حديث «من سره أن يحبه الله ورسوله فليقرأ في المصحف» فقال : وإنما اتخذت المصاحف بعد النبي ﷺ .

يقول ابن حجر : «وما المانع أن يكون الله أطلع نبيه على أن أصحابه سيتخذون المصاحف»[١] ويمكن التفكير في ذلك الاحتمال ، وتلمس أوجه التوفيق ، ولكن إذا صح الحديث ، أما والسند لم يجمع مقتضيات الصحة ، فلا حاجة لذلك .

وانتقد الحافظ الذهبي حديث العباس : «كنت خلف النبي ﷺ ـ وفيه ذكر الثريا ـ وفيه : أما إنه يملك هذه الأمة بعددها من صلبك» وقال : باطل .

واعترض ابن حجر بأن المؤلف لم يسبق إلى الحكم على الحديث بالبطلان ، وبقول عبد الله بن أحمد : كان أبي يستحسن هذا الحديث ويسرُّ به .

فأولا ليس شرطا أن يسبق الحافظ الذهبي أحدٌ ليضعف الحديث ، فالذهبي من أهل هذا الشأن ومن مجتهديه ، ثم هناك علاقة وثيقة بين متن الحديث والشئون السياسية في دولة العباسيين ، ولعل ذلك سبب في عدم ذيوع نقد ذلك الحديث .

ومن جهة أخرى ما استحسان الإمام أحمد بلازم للمعنى الاصطلاحي للحسن ، فالاستحسان يطلق كثيرا على غير المعنى الاصطلاحي ، كالغرابة والتعجب والنكارة[٢].

وانتقد الإمام الذهبي رحمه الله حديث: «**من حج من مكة ماشيًا حتى يرجع إلى المنتهى كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ...**» ،

---

(١) ابن حجر ، اللسان (٥/٣).

(٢) حسن فوزي ، منهج النقد عند المتقدمين وأثر تباين المنهج ص٥٧١-٥٨٠، ماجستير ، إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى الجويني ، الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شاكر ، كلية التربية جامعة عين شمس .

وقال : هذا ليس بصحيح ، وقد اعترض ابن حجر رحمه الله بأن ابن خزيمة والحاكم قد صححا ذلك الحديث .

ولا يخفى ما درج أهل العلم عليه من عدم الاعتماد على تصحيح الحاكم وابن خزيمة وأنهما تساهلا كثيرًا ، وذلك مبسوط في مواضعه من كتب المصطلح ، وإنما الذهبي رحمه الله نظر لمتن الحديث ، وكأنه يرى مخالفة ذلك لقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥) ، ولحديث النبي ﷺ في الرجل الذي نذر أن يمشي ولقيه النبي ﷺ ، فرفق به قائلاً : « **اركب أيها الشيخ ، فإن الله غني عنك وعن نذرك** »[١] .

وانتقد الذهبي حديث ابن عمر « خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وفي يده كتابان بتسمية أهل الجنة وبتسمية أهل النار بأسمائهم وبأسماء آبائهم وقبائلهم » وقال : هو حديث منكر جدًّا ويقتضي أن يكون زنة الكتاب عدة قناطير .

وعد ذلك ابن حجر من قبيل المعجزات وأن تلك الزنة ليست بلازمة[٢] .

ومع عدم الوثوق بالرواة لا ينبغي تكلف التأويلات والاحتمالات .

وحكم الذهبي على حديث « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها » بالوضع وتعقبه ابن حجر بأن للحديث طرقًا في مستدرك الحاكم أقل أحوالها أن يكون للحديث أصل .

وقد أنكر الإمام أحمد طلب الطرق الضعيفة وإن تعددت وجوهها ، قال : « يطلبون حديثا من ثلاثين وجها ، أحاديث ضعيفة شيء لا ينتفعون به »[٣] ، فالطرق الواهية والأحاديث المنكرة لا تزداد بذلك إلا وهنًا .

ومن ذلك قول الذهبي في بشر بن عطية المزني : يقال : له صحبة لكن لا يصح خبره . وانتقد ابن حجر ذلك قائلا : قول المصنف : يقال له صحبة عجيب ، فما أعلم أحدا صنف في أسماء الصحابة إلا وقد ذكره[٤] .

ومعلوم أنه ليس كل من ذكر في كتب الصحابة صحابي ، فربما ثبتت الصحبة بحديث ضعيف ، فإذا ضعف الحديث انتفت دلالة الصحبة ، وقد ذكر الذهبي

---

(١) مسلم ، كتاب النذر ، باب من نذر أن يمشي إلى الكعبة (٣١٠٠).

(٢) ابن حجر ، اللسان (٥/٩٦ -٩٧).

(٣) ابن رجب ، شرح العلل ص٢٤٩ .

(٤) [illegible] "لسان (٢/٢١٣).

رحمه الله في تحرير أسماء الصحابة أمثلة عديدة لمن مات قبل البعثة ، ومن قتل كافرا ، ومع ذلك ذكر في عداد الصحابة[١].

وما زالت المصنفات يراجعها صاحبها مرة بعد مرة ، فيكمل ناقصا ويصحح خطأ ويدفع وهما ، ثم تنتقل من حوزته إلى غيره من العلماء ، فيعملون فيها قرائحهم ، ويصبون فيها نتاج خبراتهم حتى يصقل العمل .

ومن مصنفات الحافظ الذهبي رحمه الله كتابه «المشتبه في الرجال» وقد وصفه ابن ناصر الدمشقي رحمه الله بقوله : «وهو كتاب جامع في بابه ، كاف لأربابه ، قيده المؤلف بالقلم وضبط»[٢].

ولكنه لم يسلم له بالصحة في كل ما ضبط ، ورأى أن الكتاب قد وقع فيه بعض أوهام وغلط وإبهام ، فصنف ابن ناصر كتابه لإصلاح هذا الغلط ، وإيضاح ذلك الإبهام .

فمن ذلك قال الذهبي (المشتبه ٣/١) : الإِبَري ، بكسر الهمزة وفتح الموحدة وكسر الراء .

قال الدمشقي : «صوابه الأُنَرى ، بضم الهمزة ، ثم نون مفتوحة ، نسبة إلى جدٍّ له يقال له أُنَر ، كما ذكر أبو بكر بن نقطة في إكماله[٣].

وقال الذهبي (المشتبه ١/ ٣٦٧) : سليك بن مسحل : تابعي ، روى عنه هلال ابن يحيى وخَلاَّم بن صالح .

قال الدمشقي : «كذا وجدته بخط المصنف : خلام ، نقط أوله بنقطة فوق ، وصحح على آخره ، وهو تصحيف ، إنما هو بمهملة : حَلاَّم بن صالح العبسي الكوفي كذا ذكره البخاري في أفراد الحاء المهملة من تاريخه[٤].

وقال الذهبي (المشتبه ٤٨٣/٢): «الغرزي ، عبد الوهاب بن شاه الشاذياخي ... كان له حانوت بيع الخرز بباب غرزة».

---

(١) الذهبي ، تجريد أسماء الصحابة (١٥٧/١- ٢٤١ ، ٢٧) ، دار المعرفة ، لبنان ، دون ذكر المحقق أو الطبعة .

(٢) ابن ناصر الدمشقي ، الإعلام بما وقع في مشتبه للذهبي من أوهام ، تحقيق عبد رب النبي محمد ، ص٩٥ ، ٩٦ ، مكتبة العلوم والحكم ، ط . ١ ، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م .

(٣) المصدر السابق ص٩٧ .

(٤) المصدر السابق ص٣٣٦ .

قال الدمشقي : «كذا نقلته من خط المصنف ، ضبط الغرزي ، وغرزة بإعجام الأول ثم إهمال الثاني ، ثم زاي منقوطة ، وهو تصحيف ، إنما هذا العزري بالعين المهملة ، يليها زاي ثم راء ، هكذا قيده أبو سعد السمعاني في معجم شيوخه ، وحكاه ابن نقطة بعد أن قيده على الصواب[١].

فهذه نماذج من طعون وانتقادات ومناقشات حديثية يغلب عليها المنهجية في النقد ، وإن سلم للمنتقد مواضع ، فلا يسلم له كل ما طعن به ، وهذه سنة الحياة ينتقد المتأخر على المتقدم ، وكذا يفيد منه ، وهذه ثمرة العلم ، فمن الذي لم يخطئ ، ومن الذي سلم من الوهم في سعة ما روى وألف وحقق . وها هو الحافظ ابن ناصر الدمشقي بعد أن انتقد على الإمام الذهبي كثيرًا من المواضع في كتابه «المشتبه في الرجال» قال في خاتمة كتابه : «ولقد كان رحمه الله من كبراء الحفاظ والنُبَل الأيقاظ ، لكن لا يسلم إنسان من غلط ونسيان»[٢].

ومما وقفت عليه :

١- تراخي الحافظ الذهبي رحمه الله أحيانا في نقد المتن ، مع أنه فارس الميدان ، ولكونه اعتاد أن يوضح غرابة المتن أو ظلامة الإسناد ، فكان تراخيه أحيانا في مواضع تحتاج للنقد يعد شيئا منتقدا .

فمن ذلك سكوته عن توهين أحاديث حياة الخضر عليه السلام ، وقد ضعفها كثير من المحققين من علماء الحديث[٣].

وكذا ذكره حديث الغرانيق في تاريخه[٤] دون إشارة إلى توهينه ، وقد أجاد محقق الكتاب بذكر أوجه تضعيفه .

وكذا ذكره حديث معاذ وفيه : «لا تبك يا معاذ ، البكاء من الشيطان»[٥] ، وهو معارض ببكاء النبي ﷺ لوفاة إبراهيم ابنه وقوله ﷺ : «**إن العين لتدمع ...**» الحديث .

---

(١) ابن ناصر الدمشقي ، الإعلام ص٤١٤ . (٢) المصدر السابق ص٥٠٤ .

(٣) الذهبي ، التاريخ (١٨/٨٠) ، تذكرة الحفاظ (١/١٢٠).

(٤) الذهبي ، التاريخ (١/١٨٧ ، ١٨٨). (٥) المصدر السابق (٢/٦٩٤ ، ٦٩٥).

وذكر حديث عبد الله بن سلام وأن النبي ﷺ رخص له في قراءة التوراة ليلة وتلاوة القرآن ليلة[١] وهذا الإقرار فيه ما فيه مما لا يجوز على رسولنا ﷺ الإقرار به ، ويعارض بقوله ﷺ : « **أمتهوكون أنتم يا ابن الخطاب ، لو كان موسى حيًّا لما وسعه أن يخالفني** » .

وكذا حديث عائشة : « كان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة ، فلما توفيت استنكر عليٌّ وجوه الناس ، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته »[٢].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير نقده لذلك بأن عليًّا ﷺ لم يكن مجانبا لأبي بكر ، بل كان يصلي خلفه الصلوات ويحضر عنده للمشورة ، وأن البيعة التي تلت وفاة فاطمة رضي الله عنها ، كانت تأكيدا للبيعة الأولى التي بايعها يوم الثقيفة[٣].

وذكر الحافظ حديث « **من شرب الخمر فاجلدوه . . . . . فإن شربها الرابعة فاقتلوه** ».

وقال : صحيح[٤] ، ولم يبين رحمه الله أن العمل ليس على هذا الحديث وليس كل صحيح يعمل به ، وقد أكثر الإمام أبو داود رحمه الله من بيان ذلك ، ولعله ترك إيضاح ذلك للترهيب ، ولكن لا يجوز تأخير البيان عند الحاجة .

٢- **وأحيانا يتردد الحافظ** ، فلا يخرج القارئ بضالته التي جاء ينشدها ، ففي حديث عائشة مرفوعا : « ليس على ولد الزنا من وزر أبويه شيء ، ولا تزر وازرة وزر أخرى » يقول الذهبي : صحيح وصح ضده[٥].

فبأيهما يعمل الحائر ، وبأيهما يعتقد الجاهل ، فكان لا بد من بيان ، يشفي الغليل ويريح العليل .

---

(١) الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٢٧/١). (٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام (٣/ ١٤).

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية (٢٨٦/٥) ، تحقيق دكتور عبد الله عبد المحسن التركي ، دار عالم الكتب ط . ٢ ، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م .

(٤) الذهبي ، الكبائر ص٧٤ ، تحقيق بسام عبد الوهاب ، دار ابن حزم ط . ٣ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

(٥) الذهبي ، تلخيص المستدرك (١٢/٤) تحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ط . ١ ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م .

وفي السير ذكر حديث الطير وعقب ذلك بقوله: «وحديث الطير ـ على ضعفه ـ فله طرق جمة وقد أفردتها في جزء، ولم يثبت، ولا أنا بالمعتقد بطلانه»[١].

٣- تناقض حكم الذهبي في الرواية الواحدة.

وقد ذكر رحمه الله ما روي أن فاطمة رضي الله عنها أمرت عليًّا، فوضع لها غسلا فاغتسلت وتطهرت، ودعت بثياب أكفانها فلبستها، ومست من الحنوط ثم أمرت عليًّا أن تدفن كما هي، وألا يكشفها أحد بعد موتها، وذكر إقرار علي بذلك.

ثم تعارض حكم الذهبي رحمه الله في الحكم على ذلك الأثر، فقال في مختصر الأباطيل والموضوعات للجوزقاني: «لعله وقع، فإنه مرسل جيد»[٢].

ثم قال في ترتيب الموضوعات لابن الجوزي: «هذا باطل لا يليق أن ينسب إلى فاطمة وعلي؛ فإن الغسل لوجود الموت لابد منه»[٣].

٤- وأحيانا ـ وذلك قليل ـ يستخدم رحمه الله شاهدا قاصرا ليقوي به أصل الرواية، ومن المعلوم أن الشاهد أو المتابعة لابد أن تكون مطابقة لأصل الرواية في الموضع المراد تقويته[٤].

فمن ذلك تعقيبه رحمه الله على حديث: «**من زار قبري وجبت له شفاعتي**».

قائلا: والحديث وإن كان غريبا، فهو مطابق لقوله: «أسعد الناس بشفاعتي من مات يشهد أن لا إله إلا الله مخلصا من قلبه»[٥].

وذلك المتن ذاته حكم عليه بالنكارة ثم قال: وفي الباب من الأخبار اللينة مما يقوى بعضه بعضا؛ لأن ما في رواتها متهم بالكذب والله أعلم، ومن أجودها إسنادا... «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي»[٦].

فاستوجب شفاعة النبي ﷺ لمن زار قبره الشريف باعتماد على حديث

---

(١) الذهبي، السير (١٣/٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) الذهبي، مختصر الأباطيل والموضوعات، للجوزقاني ص١١٣ تحقيق محمد حسن الغماري، دار البشائر الإسلامية ط. ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٣) الذهبي، ترتيب الموضوعات لابن الجوزي ص٣٢٠، رقم ١١٦٥، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ط. ١، ١٤١٥ هـ-١٩٩٤م.

(٤) حسن فوزي، منهج النقد عند المتقدمين ص٦١١، ٦١٢.

(٥) الذهبي، التاريخ (١٤/٤٠٨).

(٦) المصدر السابق (١١/٢١٢، ٢١٣).

ضعيف ، ثم يتقوى ذلك الضعف بشاهد مضمونه أن من زاره ﷺ في مماته كمن زاره في حياته بعيد ، ويلاحظ أن الذهبي رحمه الله لديه قناعة ذاتية بذلك ، فهو رحمه الله يقدر قدسية البقاع الفاضلة والأماكن المقدسة ، ويرى لها كثير فضل وعظيم ثواب بالمقارنة ببقية البقاع ، يقول رحمه الله : « والدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والأولياء ، وفي سائر البقاع ؛ لكن سبب الإجابة حضور الداعي وخشوعه وابتهاله ، وبلا ريب في البقعة المباركة وفي المسجد وفي السَّحَر ونحو ذلك يتحصل الداعي كثيرا ، وكل مضطر فدعاؤه مجاب »[١].

وهكذا تؤثر قناعة الناقد بالمتن إلى غض الطرف عن بعض المعايير ذات الأهمية في بناء أركان الحديث الشريف ودعم بنيانه .

٥- ومما يؤخذ عليه رحمه الله انتقاده الشيء ثم التلبث به ، فمن ذلك انتقاده الحافظ ابن عدى رحمه الله لذكره بعض الثقات في كامله ، مع أن ابن عدي ما أوردهم إلا للدفاع عنهم وللوفاء بشرطه في إخراج كل من تكلم عليه بضعف ، ففي ترجمة عفان قال : « تبارد ابن عدي بذكره في كتاب الضعفاء ؛ لكنه ما ذكره إلا ليبطل قول من ضعَّفه »[٢].

وفي ترجمة هدية قال :« تبارد ابن عدى في ذكره في الكامل ثم اعتذر ، وقال : استغنيت أن أخرج له حديثًا ؛ لأني لا أعلم له حديثًا منكرًا »[٣].

مع أن ميزان الاعتدال للذهبي رحمه الله قد سار على نفس النهج ، وأنه رحمه الله اعتذر بنفس الاعتذار من أنه يورد الثقات المتكلم فيهم للدفاع عنهم .

٦- ومما يؤخذ عليه رحمه الله الحدَّة عندما تلوح أمارات الوضع ، فيطلق لسانه بما يشبه السباب كقوله : في ترجمة ضرار بن سهل : « عن الحسن ابن عرفة بخبر باطل ، ولا يدرى من ذا الحيوان »[٤]. وفي ترجمة عبد الوهاب بن موسى : « لا يدرى من الحيوان الكذاب ، فإن هذا الحديث كذب »[٥] وفي ترجمة عمران بن مسلم الفزارى : « خراء الكلاب كالرافضي »[٦].

---

(١) الذهبي ، السير (١٧/٧٧) ، وانظر السير (١٠/ ١٠٧).

(٢) الذهبي ، التاريخ (١٥/ ٣٠٢).

(٣) الذهبي ، السير (١١/٩٨).

(٤) الذهبي ، ميزان الاعتدال (٢/ ٣٢٧).

(٥) المصدر السابق (٢/ ٦٨٤).

(٦) المصدر السابق (٣/ ٢٤٢).

مصنفاته

ترك الحافظ الذهبي رحمه الله تركة زاخرة ، في ميادين شتى ، ومعارف متنوعة ، قلم سيَّال ، وفكر مستنير ، وهمة عالية ، وموسوعية المعرفة ، كان ذلك جديرًا لأن نقف أمام ذلك التراث الذهبي الضخم ، والذي ما يضارع وفرته إلا إتقانه وجودته .

والإمام رحمه الله ـ كما سيأتي ـ رأس في بعض العلوم ، مشارك في بعضها يكون آخذًا منها بطرف فحسب ، فضلا عن أن يكون ضيفًا على مائدة ، وإنما كان للعلوم شمسًا ، وبين سبائك العلماء ذهبًا ، فقد استثمر رحمه الله رحلاته الواسعة ، وكثرة الشيوخ أيما استثمار ، فألف في العقيدة والقراءات ، والحديث والفقه ، والتاريخ والسير ، والرقائق والسلوك .

وأخذ رحمه الله يدقق ويحقق ، ويفتش ويمحص ، ويناقش ويشارك ، لا يسلم للنقل إلا بعد إمراره على معارفه واجتهاده ، وإلا كانت أوجه النقد ، بأدب العلماء ، وأخلاق الربانيين . فلم يكن رحمه الله حاطب ليل ، ولا مقمش التصنيف ، لم يكن في سباق لمعرفة أكثر العلماء تصنيفًا ، ولم يبغ منها ثناءً وتشريفًا ، إنما تكلم الرجل عندما تأهل لتلك المكانة ، ونقد بعد أن اكتملت أدوات اجتهاده ، اللهم إلا بعض المختصرات التي سطرها أيام الطلب الأولى ، ونبَّه على حاجته لمراجعتها كتلخيصه للمستدرك .

وقد طالعت بعض ما كُتب عن مصنفات الحافظ الذهبي رحمه الله قديمًا ، مثل فوات الوفيات للكتبي ، وذيل التذكرة للسيوطي ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ، والشذرات لابن العماد ، والبدر الطالع للشوكاني ، والرسالة المستطرفة للكتاني ، والأعلام للزركلي .

ومما عني بذلك حديثًا دكتور محمد شوقي خضر في رسالته لنيل الدكتوراه بعنوان «الذهبي المحدث» والدكتور بشار عواد معروف ، في رسالته لنيل الدكتوراه أيضًا بعنوان «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام» ، وقد استدرك عليه دكتور قاسم علي سعد بعض المصنفات التي ذكرها على سبيل الوهم وزاد

بعضًا لم يذكره دكتور بشار في كتابه «صفحات في ترجمة الحافظ الذهبي» ومن المشاركات المنهجية المتميزة ما سطره الأستاذ عبد الستار الشيخ في تلك الدراسة القيمة بعنوان «الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام ، ناقد المحدثين» وبعيدًا عن تكرار الجهد واستنفاد الطاقة فيما فرغ منه ؛ حيث قد وثّق هؤلاء نسبة هذه المصنفات للحافظ الذهبي ، إما نقلا عن كتب التراجم وإما استخراجًا من قول الإمام الذهبي في ثنايا كتبه المطبوع منها والمخطوط . لذلك أكتفى بإيراد أسماء مصنفاته رحمه الله ، وأحيل القارئ إلى تلك الدراسات القيمة .

هذا وقد ظهر لي أن الأستاذ عبد الستار الشيخ قد امتازت دراسته بأنها الأشمل عددًا والأفضل ترتيبًا والأسهل بحثًا ، حيث اشتملت قائمة مؤلفات الذهبي عنده على مائتين وسبعين مصنفًا ، وقد رتبها على الموضوعات ، ثم داخل كل قسم على حروف المعجم ، وقد قارنت قائمة مؤلفات الذهبي في الدراسات الأخرى ، فوجدته قد حصرها وجمعها ، فاعتمدت قائمته ، لما فيها من الشمول وسهولة البحث .

● **مصنفات الحافظ الذهبي في العقائد :**

١- أحاديث الصفات .
٢- الأربعين في صفات رب العالمين .
٣- جزء في الشفاعة .
٤- جزءان في صفة النار .
٥- الروع والأوجال في نبأ المسيح الدجال .
٦- كتاب رؤية الباري .
٧- طرق أحاديث النزول .
٨- كتاب العرش .
٩- العلو للعلي الغفار .
١٠- كتاب ما بعد الموت .
١١- مختصر كتاب «البعث والنشور» للبيهقي .
١٢- مختصر كتاب «الفاروق في الصفات» للأنصاري الهروي .

١٣- مختصر كتاب القدر للبيهقي .
١٤- مختصر من الذهبية ، وهي رسالة في مسألة العلو .
١٥- مسألة خلود الكفار في النار .
١٦- مسألة دوام النار .
١٧- مسألة الوعيد .
١٨- المنتخب في الرد على الجهمية .
١٩- المنتقى من منهاج الاعتدال في رفض كلام أهل الرفض والاعتزال لابن تيمية .

● **في القراءات :**

٢٠- التلويحات في علم القراءات .

● **في الحديث وعلومه :**

أ- الحديث والأجزاء والعوالي .
٢١- أحاديث مختارة من «الموضوعات» للجوزقاني .
٢٢- أحاديث مختصر ابن الحاجب .
٢٣- الأربعون البلدانية .
٢٤- أربعون حديثًا بلدانية من معجم ابن جميع الصيداوي .
٢٥- أربعون حديثًا بلدانية من معجم شيوخ أبي بكر المقدسي .
٢٦- أربعون حديثًا بلدانية من معجم شيوخ ابن المقرئ .
٢٧- أربعون حديثًا بلدانية من المعجم الصغير للطبراني .
٢٨- أربعون حديثًا للأبرقوهي .
٢٩- أربعون حديثًا لأبي هريرة ـ ابن الحافظ الذهبي .
٣٠- الأربعون الموافقات .
٣١- أوهام ابن الأبار في الأربعين له .
٣٢- أوهام عبد القادر الرهاوي في الأربعين له .
٣٣- ترتيب الموضوعات لابن الجوزي .
٣٤- تلخيص الأباطيل للجوزقاني .

obeikan.com

٣٥- تلخيص العلل المتناهية لابن الجوزي .
٣٦- تنقيح كتاب «التحقيق في أحاديث التعليق» لابن الجوزي .
٣٧- الثلاثون البلدانية .
٣٨- ثلاثون حديثًا من المعجم الصغير للطبراني .
٣٩- ثلاثيات ابن ماجه .
٤٠- جزء لأحمد بن أيبك الحسامي .
٤١- جزء لأمين الدين الواني .
٤٢- جزء لأبي بكر المرسي .
٤٣- جزء لابن الخلال .
٤٤- جزء لعبد الوهاب الإسكندراني .
٤٥- جزء العفيف المطري .
٤٦- جزء علي بن جماعة الكناني .
٤٧- جزء علاء الدين الخراط .
٤٨- جزء للقزويني ، أبي العباس أحمد بن عبد المنعم .
٤٩- جزء لابن الكويك .
٥٠- جزء لابن المحب المقدسي .
٥١- الجزء الملقب بالدينار من حديث المشايخ الكبار .
٥٢- جزء لموسى بن على البكري .
٥٣- جزء من حديث التَّلي .
٥٤- جزء من عوالي ابن رافع السلامي .
٥٥- طرق حديث الرحمة .
٥٦- طرق حديث رفع اليدين في الصلاة .
٥٧- طرق حديث الطير .
٥٨- طرق حديث من كنت مولاه .
٥٩- عوالي حماد بن زيد .
٦٠- عوالي حماد بن سلمة .

obeikan.com

٦١- عوالي زينب بنت الكمال .
٦٢- عوالي الشمس ابن الواسطي .
٦٣- عوالي الطاووسي .
٦٤- عوالي أبي عبد الله اليونيني .
٦٥- عوالي علاء الدين بن العطار .
٦٦- العوالي من حديث مالك .
٦٧- العوالي المنتقاة من جزء أبي مسعود الرازي
٦٨- العوالي المنتقاة من حديث الذهبي .
٦٩- غرائب «سنن ابن ماجه» .
٧٠- مختصر «بيان الوهم والإيهام» لابن القطان .
٧١- مختصر «تحفة الأشراف» للمزي .
٧٢- مختصر المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي .
٧٣- مختصر المستدرك للحاكم .
٧٤- مختصر المستدرك للهروي .
٧٥- المستدرك على مستدرك الحاكم ، جمع فيها الأحاديث الباطلة .
٧٦- مختصر مسند عمر للإسماعيلي .
٧٧- مصافحات سليمان بن حمزة المقدسي .
٧٨- المنتقى من الأحاديث المختارة للضياء .
٧٩- المنتقى من جزء أبي الجهم .
٨٠- المنتقى من جزء ابن عرفة .
٨١- المنتقى من حديث الأبرقوهي .
٨٢- المنتقى من حديث تقي الدين البعلي .
٨٣- المنتقى من حديث القاسم بن يوسف التجيبي .
٨٤- المنتقى من عوالي القونوي .
٨٥- المنتقى من مسند عبد بن حميد .
٨٦- المنتقى من مسند أبي عوانة .

obeikan.com

٨٧- المنتقى من معجمي الطبراني الأوسط والكبير ، ومن مسند المقلين لدعلج .
٨٨- مهذب السنن الكبرى للبيهقي .

● كتب المصطلح وعلم الرجال والجرح والتعديل :

٨٩- أسماء الرواة عن مالك .
٩٠- أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع .
٩١- البيان عن اسم ابن فلان .
٩٢- تذهيب تهذيب الكمال .
٩٣- تراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق .
٩٤- تسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري .
٩٥- تقييد المهمل .
٩٦- التلويح بمن سبق ولحق .
٩٧- ديوان الضعفاء والمتروكين .
٩٨- ذكر من اشتهر بكنيته من الأعيان .
٩٩- ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل .
١٠٠- ذيل ديوان الضعفاء والمتروكين .
١٠١- ذيل الضعفاء لابن الجوزي .
١٠٢- الذيل على ذيل الضعفاء لابن الجوزي .
١٠٣- الرد على يحيى بن سعيد القطان .
١٠٤- الزيادة المضطربة .
١٠٥- العذب السلسل في الحديث المسلسل .
١٠٦- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة .
١٠٧- المجرد في أسماء رجال كتاب سنن ابن ماجه .
١٠٨- المجرد من تهذيب الكمال .
١٠٩- مختصر الضعفاء لابن الجوزي .
١١٠- المرتجل في الكنى .
١١١- المشتبه في الرجال : أسمائهم ، وأنسابهم .

obeikan.com

١١٢- معرفة التابعين من الثقات لابن حبان .
١١٣- معرفة الرواة المتكلم فيهم بما لا يوجب الرد .
١١٤- المغني في الضعفاء .
١١٥- المقتضب من تهذيب الكمال للمزي .
١١٦- المقتنى في سرد الكنى .
١١٧- المقدمة ذات النقاط في الألقاب .
١١٨- من تكلم فيه وهو موثق .
١١٩- منية الطالب لأعز المطالب .
١٢٠- الموقظة في علم المصطلح .
١٢١- منتقى من «أسماء الرجال» للسليماني .
١٢٢- منتقى من «الجرح والتعديل» للعجلي .
١٢٣- ميزان الاعتدال في نقد الرجال .
١٢٤- النبلاء في شيوخ السنة .

● **المعاجم والمشيخات :**

١٢٥- جزء في أصحاب ابن عساكر الذين رووا لشيوخ الذهبي .
١٢٦- مشيخة التَّلِّي .
١٢٧- مشيخة الجعبري .
١٢٨- مشيخة ابن الزراد الحريري .
١٢٩- مشيخة ابن سعد .
١٣٠- المشيخة الصغرى لسنقر الزيني
١٣١- مشيخة عز الدين المقدسي .
١٣٢- مشيخة علاء الدين القونوي .
١٣٣- مشيخة ابن القواس .
١٣٤- مشيخة الكحال .
١٣٥- مشيخة محمد بن يوسف الإربلي .
١٣٦- مشيخة المطعم الصالي .

obeikan.com

١٣٧- منتخب من مشيخة القاضي ابن الخويِّي .
١٣٨- المنتقى من مشيخة ابن عبد الدائم المقدسي .
١٣٩- المعجم الصغير «اللطيف» .
١٤٠- المعجم الكبير .
١٤١- المعجم المختص بالمحدِّثين .
١٤٢- معجم شيوخ ابن البالسي .
١٤٣- معجم شيوخ ابن حبيب .
١٤٤- معجم شيوخ علاء الدين بن العطار .
١٤٥- المعجم العلي للقاضي الحنبلي .
١٤٦- المنتقى من معجم ابن مسدى .
١٤٧- المنتقى من معجم الحافظ المنذري .
١٤٨- المنتقى من معجم يوسف بن خليل لدمشقي .

● **مصنفات في التاريخ والتراجم والسير :**

أ- التاريخ والتراجم

١٤٩- أخبار السد .
١٥٠- أخبار قضاة دمشق .
١٥١- الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام .
١٥٢- الإعلام بوفيات الأعلام .
١٥٣- الأمصار ذوات الآثار .
١٥٤- أهل المائة فصاعدًا .
١٥٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام .
١٥٦- التاريخ الممتع .
١٥٧- تجريد أسماء الصحابة .
١٥٨- تجريد الحفاظ .
١٥٩- تذكرة الحفاظ .
١٦٠- تهذيب «تاريخ» علم الدين البرزالي .

obeikan.com

١٦١- جزء أربعة تعاصروا .
١٦٢- دول الإسلام .
١٦٣- ذيل الإشارة إلى وفيات الأعيان .
١٦٤- ذيل دولة الإسلام .
١٦٥- ذيل سير أعلام النبلاء .
١٦٦- ذيل العبر في خبر من غبر .
١٦٧- ذيل معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار .
١٦٨- كتاب الزلازل .
١٦٩- سير أعلام النبلاء .
١٧٠- طبقات الحفاظ .
١٧١- طبقات الشيوخ .
١٧٢- العباب في التاريخ .
١٧٣- العبر في خبر من غبر .
١٧٤- عنوان السير في ذكر الصحابة .
١٧٥- فوائد من تاريخ الكازروني .
١٧٦- القبان في أصحاب ابن تيمية .
١٧٧- المختار من تاريخ ابن الجزري .
١٧٨- مختصر « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي .
١٧٩- مختصر « الأنساب » للسمعاني .
١٨٠- مختصر « تاريخ بغداد » للخطيب .
١٨١- مختصر « تاريخ دمشق » لابن عساكر .
١٨٢- مختصر « تاريخ مصر » لابن يونس .
١٨٣- مختصر « تاريخ نيسابور » للحاكم .
١٨٤- مختصر « تقويم البلدان » للملك المؤيد صاحب حماة .
١٨٥- مختصر « التكملة لكتاب الصلة » لابن الأبار .
١٨٦- مختصر « التكملة لوفيات النقلة » للمنذري .

obeikan.com

١٨٧- مختصر «ذيل تاريخ بغداد» للسمعاني .
١٨٨- مختصر «ذيل مرآة الزمان» لليونيني .
١٨٩- مختصر «الروضتين وذيله» لأبي شامة .
١٩٠- مختصر «صلة التكملة لوفيات النقلة» للحسيني .
١٩١- المختصر المحتاج إليه من «تاريخ ابن الدبيثي» .
١٩٢- مختصر «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمراكشي .
١٩٣- مختصر «وفيات الأعيان» لابن خلكان .
١٩٤- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار .
١٩٥- المعين في طبقات المحدِّثين .
١٩٦- المنتخب من تاريخ ابن النجار .
١٩٧- منتقى «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر .
١٩٨- المنتقى من «تاريخ خوارزم» لابن أرسلان الخوارزمي .
١٩٩- المنتقى من «تاريخ أبي الفداء» .
٢٠٠- المنتقى من«معرفة الصحابة» لابن منده .
٢٠١- هالة البدر في عدد أهل بدر .

ب ـ السير والتراجم المفردة :

٢٠٢- أخبار أبي مسلم الخراساني .
٢٠٣- أخبار أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .
٢٠٤- بلبل الروض اختصار «الروض الأنف» للسهيلي .
٢٠٥- التبيان في مناقب عثمان بن عفان .
٢٠٦- ترجمة أحمد بن حنبل .
٢٠٧- ترجمة البرزالي .
٢٠٨- ترجمة أبي حنيفة .
٢٠٩- ترجمة الخضر .
٢١٠- ترجمة السلفي الحافظ الأصبهاني .
٢١١- ترجمة الشافعي .
٢١٢- ترجمة عبد القاهر البغدادي .

obeikan.com

٢١٣- ترجمة عبد الله بن أحمد بن حنبل .
٢١٤- ترجمة ابن عقدة الكوفي .
٢١٥- ترجمة قتيبة بن سعيد البغلاني .
٢١٦- ترجمة مالك بن أنس .
٢١٧- ترجمة محمد بن الحسن الشيباني .
٢١٨- ترجمة الموفق بن قدامة .
٢١٩- ترجمة أبي يوسف القاضي .
٢٢٠- توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق .
٢٢١- الدرة اليتيمية في سيرة ابن تيمية .
٢٢٢- الزخرف القصري في ترجمة الحسن البصري .
٢٢٣- سيرة الحلاج .
٢٢٤- سيرة سعيد بن المسيب .
٢٢٥- سيرة الطبراني .
٢٢٦- سيرة عمر بن عبد العزيز .
٢٢٧- سيرة الذهبي لنفسه .
٢٢٨- السيرة النبوية .
٢٢٩- فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب .
٢٣٠- قضٌ نهارك بأخبار ابن المبارك .
٢٣١- مختصر «مناقب سفيان الثوري» لابن الجوزي .
٢٣٢- معرفة آل منده .
٢٣٣- مناقب الإمام البخاري .
٢٣٤- نعم السمر في سيرة عمر .
٢٣٥- نقض الجعبة في أخبار شعبة .

● **مصنفات في الفقه وأصوله :**

٢٣٦- تحريم أدبار النساء .
٢٣٧- تشبيه الخسيس بأهل الخميس .

obeikan.com

٢٣٨- جزء في الخضاب .
٢٣٩- جزء في صلاة التسبيح .
٢٤٠- جزء في القهقهة .
٢٤١- حقوق الجار .
٢٤٢- ذكر الجهر بالبسملة مختصراً من كتاب «الجهر بالبسملة» للخطيب .
٢٤٣- الرخصة في الغناء والطرب بشرطه .
٢٤٤- صلاة الضحى .
٢٤٥- فضائل الحج وأفعاله .
٢٤٦- كتاب اللباس .
٢٤٧- مختصر «الرد على ابن طاهر» لابن المجد .
٢٤٨- كتاب مسألة الاجتهاد .
٢٤٩- كتاب مسألة خبر الواحد .
٢٥٠- كتاب مسألة السماع .
٢٥١- المستحلى في اختصار «المحلى» لابن حزم .
٢٥٢- المنتقى من «كتاب الأموال» لأبي عبيد .
٢٥٣- كتاب الوتر .

● **مصنفات في الرقائق :**

٢٥٤- التعزية الحسنة بالأعزة .
٢٥٥- جزء في محبة الصالحين .
٢٥٦- دعاء المكروب .
٢٥٧- ذكر الولدان .
٢٥٨- الكبائر .
٢٥٩- كشف الكربة عند فقد الأحبة .
٢٦٠- مسألة الغيبة .
٢٦١- مختصر «كتاب الزهد» للبيهقي .
٢٦٢- مختصر «كتاب سلاح المؤمن» لابن الإمام .

obeikan.com

● **مصنفات متنوعة :**

٢٦٣- الإمامة الكبرى .

٢٦٤- بيان زغل العلم والطلب .

٢٦٥- التمسك بالسنن .

٢٦٦- جزء في فضل آية الكرسي .

٢٦٧- الطب النبوي .

٢٦٨- كتاب العلوم .

٢٦٩- كسر وثن رتن .

كتب منتحلة على الذهبي

من بلغت شهرته الآفاق ، ولم يستغن عن علومه من بالأندلس إلى العراق ، ومن حظي بقبول العلماء ، ولاقت مصنفاته ألوان المدح والثناء ، كان من اليسير أن ينتحل اسمه ، إما تدليسًا وإما كذبًا وزورا ، حتى يحدث الإقبال على ذلك المصنف المنحول الذي لم يلاق صاحبه وسيلة لانتشار كتابه سوى إلصاقه بأحد الأعلام .

ومما وقفت عليه مما نسب إلى الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى :

١- الكبائر :

درج كثير من الباحثين على اعتماد نسخة الكبائر بعناية الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة طبع (١٣٥٦هـ) وما بعدها من طبعات مصورة عنها أو معتمدة في التحقيق عليها ، كطبعة الأستاذ عبد الرحمن فاخوري طبع (١٣٩٥هـ) وكانت التساؤلات تتردد على الأذهان ، والتشككات لا تفارق العقول حتى بلغ البعض أن يلقي باللائمة على الحافظ الذهبي رحمه الله ، ويتهم منهجه بالتساهل في النقل ؛ خاصة والكتاب قد اكتظ بالحكايات والأحاديث الضعيفة ، وأحيانًا الموضوعة .

والحق أن الرجل كما هو ذو منهج معتدل ، فلا يقبل إلا الصحيح ، وإن مر عليه خلاف ذلك غمزه بالتصريح أو التلميح كما اعتدنا ـ معشر طلاب العلم ـ على أسلوبه وتذوقنا عباراته .

ظلت هذه الأوهام حتى خرج الكتاب الذي ألفه الذهبي إلى النور ، وذلك بالتعاون بين الأستاذ محيى الدين مستو والأستاذ بسام عبد الوهاب في جمع مخطوطاته ثم تحقيق الأول له .

ثم تعددت طبعات كتاب الكبائر بعد ذلك بعناية الأستاذ مشهور حسن سليمان ، ثم الأستاذين محيي الدين نجيب وقاسم النوري ثم طبعة الأستاذ بسام عبد الوهاب والتي أصدرتها دار ابن حزم وهي بين يدي الآن[١] .

٢- رسالة الذهبي إلى ابن تيمية[٢] :

وهي رسالة عمادها الغلظة ، وحصباؤها الاتهامات الموجعة ، وسقفها التكر لشيخ ورفيق درب ، تمتلئ بالفظاظة والفظاعة ، فما أن رأيتها ـ وقد اطلعت على نسختها المخطوطة بدار الكتب المصرية ـ وعاينت شخص الذي أهداها إلى دار الكتب ، وما تطوع به من نسخها بخطه الواضح ، وهو الأستاذ محمد زاهد الكوثري ، وهو معروف بمعارضته لكثير من آراء ابن تيمية ومعتقداته ؛ حتى بدأ الشك يسيطر عليَّ ، وما إن قرأت سطورها القليلة العدد الكثيرة التهم ، حتى جزمت بأن هذا ليس من قول الذهبي رحمه الله ؛ بل هو منحول عليه ؛ وذلك لما يلي :

الذهبي رحمه الله كثيرًا ما يلتمس أحسن المخارج لأقوال من يخالفهم ؛ فهو يختلف مع كثير من المتصوفة ، ولكنه يحاول أن ينسب بعض أقوالهم غير السائغة إلى أنهم قالوها في حال السكر ، أو أن لها عندهم مدلولات تختلف عن

---

(١) الذهبي ، الكبائر ، مقدمة المحقق ص٧ - ٩ .

(٢) أعرضت عن ذكر نص الرسالة لما فيها من المجازفات .

ظاهر معناها ، أو أن ذلك من تأثير الخلوات والجوع المفرط الذي يؤثر في صاحبه طرف جنون[١] فلم يستطل فيهم بلسانه .

وفي ترجمته للحافظ ابن تيمية قال : « فوالله ما مقلت عيني مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه . . . فارغًا عن شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه »[٢].

وقال في موضع آخر : « وكان من بحور العلم ، والأذكياء المعدودين ، والزهاد الأفراد ، والشجعان الكبار ، والكرماء الأجواد ، أثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان »[٣].

وفي بعض انتقاداته على ابن تيمية يلتزم الأدب حيث يقول : « وقد انفرد بفتاوى نيل من عرضه لأجلها ، وهي مغمورة في بحر علمه ، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه ، فما رأيت مثله ، وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويترك فكان ماذا؟ »[٤].

وينتقد عليه عدم الاستماع إلى النصح بالكف عن خصومه ، مما أدى به إلى كثير من المحن فيقول : « وقد سجن غير مرة ليفتر عن خصومه ، ويقصر عن بسط لسانه وقلمه ، وهو لا يرجع ولا يلوي على ناصح ، إلى أن توفي معتقلا بقلعة دمشق . . . وشيعه أمم لا يحصون إلى مقبرة الصوفية ، غفر الله له ورحمه آمين »[٥].

وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله ما يبين موقفه من ابن تيمية بوضوح يقول الذهبي : « ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه ، وقد أوذيت من الفريقين : من أصحابه وأضداده ، وأنا لا أعتقد فيه عصمة ؛ بل أنا مخالف له في مسائل أصلية

---

(١) الذهبي ، الميزان (٣/ ٦٥٩) ، التاريخ (٢٠/ ١١٢).

(٢) الذهبي ، المعجم المختص بالمحدثين ص٢٥ ، ٢٦ .

(٣،٤) الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٤/١٤٩٦ ، ١٤٩٧).

(٥) الذهبي ، المعجم المختص بالمحدثين ص٢٦ .

وفرعية»[١] ومع ذلك الاختلاف ، فالحافظ الذهبي يرى في شيخ الإسلام ابن تيمية نموذجًا قلما يتكرر ، ويرى أن مخالفيه إنما خالفوه عن هوى .

يقول الذهبي : «فوالله ما رمقت عيني أوسع علمًا ، ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له ابن تيمية ، . . . وقد تعبت في وزنه وفتشته حتى مللت في سنين متطاولة ، فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشام ، ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا الكبر والعجب ، وفرط الغرام في رياسة المشيخة ، والازدراء بالكبار» ثم يموت ابن تيمية في حياة الذهبي ، فيرثيه في قصيدة شهيرة يقول فيها :

يا موت خذ من أردت أو فدع ... محوت رسم العلوم والورع

أخذت شيخ الإسلام وانفصمت ... عرى التقى واشتفى أولو البدع

غيبت بحرًا مفسرًا جبلا ... حبرًا تقيًّا مجانب الشيع

فإن يحدِّث فمسلم ثقة ... وإن يناظر فصاحب اللمع

إلى أن قال :

قضي ابن تيمية وموعده ... مع خصمه يوم نفخة الفزع[٢]

وبعد هذا يظن أن تكون تلك النصيحة الذهبية من تأليف الحافظ الذهبي؟! القلب يأبى هذا ، والعقل يرفضه ، والشواهد ترده وما يتمسك به إلا من يتخذ من هذه الرسالة ذريعة للنيل من الحافظ ابن تيمية ، رضي الله عن الأئمة الأعلام ، وغفر الله للجميع بمنِّه وكرمه ، آمين[٣] .

٣- الطب النبوي :

ينسب إلى الإمام الذهبي مصنفا بعنوان الطب النبوي ، وهو مطبوع طالعته ، وأفدت منه ، ولكني أجزم أنه لغير الحافظ الذهبي ، وأنه مما نسب إليه على الانتحال والتزييف أو الوهم والتصحيف ، ومما يدلل على ذلك ما يلي :

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة (١/١٥١).

(٢) ابن ناصر الدين الدمشقي ، الرد الوافر ص٧٣ .

(٣) وقد أكد دكتور بشار عواد نسبة هذه الرسالة للذهبي ، ولم يعترض عليها وجعلها مما يؤيد وسطية الحافظ الذهبي رحمه الله!! في كتابه : الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام ص١٤٦ ، وانتقدها الأستاذ عبد الستار الشيح ودلل على زيفها وبطلانها في كتابه : الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام ، ناقد المحدثين ص٣٥٠-٣٥٢ .

ليس فيه أسلوب الذهبي المعروف عنه ، ولا يحتوي على فوائده الإسنادية ولا التفاتاته لنقد المتون المروية ، فلا نجد فيه نَفَس الذهبي المعهود .

احتوى الكتاب على الكثير من الأحاديث الموضوعة ، الواضحة البطلان ، دون أدنى تعليق أو أقل إشارة إلى ذلك كنوع من الإقرار لتلك الواهيات وهذه الأباطيل ، من ذلك ص٧٣ : «الأرز شفاء لا داء فيه» ، وص٧٤ : حديث موضوع في فضل السواك ، وآخر ص٨٣ في فضل البطيخ ، ثم حديث في فضل الحناء وأنها تزيد في الجماع ، وحديث : «أين أنت من الهريسة» إلى غير ذلك من تلك البواطيل التي تبعث على الغثيان وتدعو إلى الاشمئزاز في غير نقد علمي لهذه الأراجيف ، أيعقل أن يدون ذلك الحافظ الذهبي على سبيل الإقرار ، ثم ينتقدها في مصنفاته الأخرى؟!

جهل المصنف للدلالات اللغوية والمعجمية ، فقد ذكر في مادة «ج ب ن» «قدمت لرسول الله جبنا مشويا»[١] هكذا «جبنا» بتقديم الباء ثم النون والمعروف في الرواية «جنبًا» بتقديم النون الفوقية ثم الباء التحتية ، وتعني شق الشاة أو نصفها ، فهل يخفى مثل ذلك على الحافظ الذهبي ، ثم متى كان الجبن يؤكل مشويا؟!

وكذلك الاستدلال الفقهي القاصر المعتمد على ضيق الفهم في الدلالة اللغوية فقد نقل قول عائشة رضي الله عنها : «عالجتني أمي بكل شيء ، فلم أسمن فأطعمتني القثاء والرطب فسمنت» ثم قال : «فيه دليل على جواز استعمال الأدوية المسمنة للنساء»[٢].

فالمصنف لا يعلم من دلالات لفظة «عالجتني» سوى العلاج الطبي بالأدوية ، وبالرجوع إلى المعجم يتبين سعة ذلك المعنى .

٤- المنهج في مصطلح الحديث النبوي :

عندما اطلعت على عنوان هذا الكتاب للحافظ الذهبي ، أسرعت نحوه ، وإن كنت أتوقع أحد احتمالين : إما أن يكون نسخة من كتاب الموقظة له الذي

---

(١) الطب النبوي المنسوب إلى الذهبي ص٩٥ ، تحقيق أحمد رفعت البدراوي ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط . ٣ ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

(٢) المصدر السابق ص١٦١ .

اختصر فيه كتاب شيخه ابن دقيق العيد ، وأن المحقق أراد لفت الأنظار إلى ذلك الكتاب علي سبيل التدليس .

والاحتمال الثاني أن يكون المحقق قد جمع فوائد الحافظ الذهبي وفرائده الخاصة بمصطلح الحديث من كتب الذهبي المتعددة ، على غرار صاحب كتاب الجرح والتعديل للذهبي ، أو الدراري المكنونة في الأماكن المنثورة .

ولكن حدسي لم يصدق ، وأيضا لم تثبت نسبة هذه المادة في ذلك الكتاب للحافظ الذهبي ، فقد جاء الكتاب خلوا من أي نسبة أو توثيق كما فقد الكتاب ما تعارف عليه المحققون من تصوير الصفحات الأولى والأخيرة ، وهي مظنة السماعات والتملكات ، التي تساعد على نسبة الكتاب لمؤلفه .

وعند التعريف الخاص بالحسن اكتفى المصنف بذكر تعريف الخطابي رحمه الله دون أن يعرج إلى غيره[١] ، والمعروف أن للحافظ الذهبي رأي في الحديث الحسن فهو يرى أن الحسن « ما سلم من ضعف الرواة ، فهو حينئذ داخل في قسم الصحيح ، وحينئذ يكون الصحيح مراتب ، والحسن ذا رتبة دون تلك المراتب ، فجاء الحسن مثلا في آخر مراتب الصحيح »[٢] .

فللرجل اجتهاده الذي عرف عنه في مصنفاته ، ونقله عنه أهل العلم ثم أعلن المصنف عن أنه متأخر عن ذلك العصر ، ونادى المحقق بقلة بضاعته وأن ذلك الأمر ليس من صناعته ، فنأى بنا عن إكمال مادة الكتاب إذ ذكر عند السؤال عن معنى لفظ الجيد نقل المصنف المتوفى (٧٤٨ هـ) عن الحافظ ابن حجر المتوفى[٣] (٨٥٢ هـ) فبطل الاحتجاج ، وأغلق الباب .

وهكذا لا بد من يقظة أمام المصنفات التي تنسب خطأ إلى غير مؤلفيها لأن نسبة الكتاب إلى مؤلف ما ورسوخ ذلك عند طلاب العلم قد يحمِّل ذلك العالم غير ما قاله ، ويلزمه في بناء منهجه غير ما التزمه ، وبالله التوفيق .

---

(١) المنهج في مصطلح الحديث المنسوب إلى الذهبي ص٧٢ ، تحقيق كامل عويضة ، مكتبة نزار الباز مكة المكرمة . ط . ١ ، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م .

(٢) الذهبي ، الموقظة ص٢٦ ، ٢٧ ، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ط . ٢ ، ١٤١٢هـ .

(٣) المنهج في مصطلح الحديث المنسوب إلى الذهبي ص٨٦ .

وفاته

ظل الإمام الذهبي رحمه الله في نشاط دءوب ، يطالع ويدرس ، ويصنف ويحقق ، ومع مرور الأيام وتعاقب السنوات ، أخذت صحة الشيخ تضعف وبصره ينقص قليلا قليلا .

يقول الشيخ في معرض الحديث عن مسند الإمام أحمد : « ولولا أني عجزت عن ذلك ـ أي ترتيب الكتاب وتنقيحه ـ لضعف البصر وعدم النية وقرب الرحيل ؛ لعملت في ذلك »[١] .

وينقل عنه ذلك الشوكاني حيث يقول : « ما زال بصري ينقص قليلا قليلا إلى أن تكامل عدمه »[٢] .

وبعدها ظلت الأيام تمضي ، والشيخ في طريقه إلى الله يوشك أن يصل ، وكما هي سنة الله العليم الخبير أن من عاش على شيء مات عليه ، ومن قدم في حياته إحسانا جازاه به عفوا وغفرانا ، وختم له بخير .

ينقل التاج السبكي أنه رحمه الله وهو في السياق كان يسأل عن حضور وقت صلاة المغرب ، ثم سأل تقي الدين السبكي عن الجمع بين المغرب والعشاء جمع تقديم فأفتاه بذلك ، فصلى رحمه الله المغرب والعشاء ، ثم فاضت روحه الطاهرة بعد ذلك[٣] ، وكانت ليلة الإثنين ثالث ذي القعدة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة للهجرة النبوية ليلة أفول ذلك النجم ، ومغيب تلك الشمس التي طالما أشرقت فأضاءت وأفادت ، وأرشدت ووجهت .

وذلك بتربة أم الصالح بدمشق ، ودفن بمقابر باب الصغير ، وحضره كثير من العلماء ، وقد رثته القلوب قبل أن ترثيه الكلمات ، وبكته المشاعر قبل أن تبكيه الأشعار .

---

(١) الذهبي السير ، (٥٢٥/١٣).
(٢) الشوكاني في البدر الطالع (١١٢/٢).
(٣) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (١٠٥/٩ ، ١٠٦).

● ومما قيل في رثائه :

ما رثاه تلميذه الصفدي[١] ، ومما رثاه به :

أشمسَ الدين غبتَ وكلُّ شمسٍ ... تغيبُ وزال عنا ظِلُّ فضلكْ

وكم وَرَّخت أنت وفاة شخصٍ ... وما ورختَ قطُّ وفاةَ مثلكْ

ومن ذلك ما رثاه به تلميذه التاج السبكي[٢] :

من للحديث وللسارين في الطلب ... من بعد موت الإمام الحافظ الذهبي

من للرواية للأخبار ينشرها ... بين البرية من عجم ومن عربِ

من للدراية والآثار يحفظها ... بالنقد من وضع أهل الغي والكذبِ

من للصناعة يدري حل معضلها ... حتى يريك جلاء الشك والريبِ

. . . . . .

وإن تغب ذات شمس الدين لا عجبُ ... فأي شمس رأيناها ولم تغبِ

هو الإمام الذي رؤت روايته ... وطبق الأرض من طلابه النجبِ

مهذب القول لا عيٌّ ولجلجةٌ ... مثبت النقل سامي القصد والحسبِ

ثبت صدوق خبير حافظ يقظٌ ... في النقل أثبت أنباءً من الكتبِ

الله أكبر ما أقرا وأحفظه ... من زاهد ورعٍ في الله مرتغبِ

رحمه الله رحمة واسعة ، وتغمده بوافر الرحمات ، وجعله في أعلى عليين ؛ فكم ملأت مصنفاته سمع الدنيا وبصرها ، وكم أضاءت آراؤه ظلمات حوالك ، وكم حارب الجمود والتقليد ، ونابذ البدع والخرافات ، وكم بذل عمره وجهده خادمًا للعلم ، وفيًّا للسنة ، أمينًا على حوادث التاريخ ، مع إنصاف لا يعرف المحاباة ، وجرأة في الحق لا تقبل المهادنة وطلب للحق أينما كان ، فكان في العلم بين الأئمة شمسًا لا تخبو وكان في الأخلاق بين معادن الرجال ذهبًا .

---

(١) الوافي بالوفيات (٢/١٦٥).

(٢) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (١٠٩-١١١)